الكودية

تاليف
د. نبيل راغب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الكودية

(١)

أخيرا أصبحت ملكة الزار المتوجة . تحقق الحلم الذى داعب خيالها وشقت من أجله عشرين عاما . إنها الآن فى الخامسة والثلاثين من عمرها . جسدها المسترخى الآن على الفراش يضج بالحيوية ويتدفق بالحياة . جمالها الوحشى المتدفق من بشرتها البيضاء ، وعينيها السوداوين الواسعتين العميقتين عمق آبار الأساطير ، كان مطمع كل الرجال من أصدقاء الأسطى ريحانة رحمها الله . لكنها عرفت كيف تحافظ عليه حتى نجحت فى الإيقاع بكافور ابنها المستلقى إلى جوارها . فلا يعقل أن تلدغ من نفس الجحر مرتين !

كان يوم شاقا لها وله ! فقد رحلت الأسطى ريحانة عن الدنيا فى منتصف الليل بعد آخر حفل لها أقامته لابنة باشا سابق ! كم نصحتها بالاعتذار عن الحفل أو تأجيله أو إنابتها عنها فيه ؟ ! لكنها أصرت برغم ضعف قلبها وتحذير الأطباء لها من بذل أى مجهود غير عادى ! كانت حفلات الزار حياتها ودنياها ومملكتها . فيها الجميع رهن إشارتها وطوع بنانها ! كانت تتمنى أن يأتيها الموت وهى جالسة على عرشها فتموت ميتة الملكات ! ويبدو أن الموت كان رهن إشارتها ، شأنه فى ذلك شأن كل من حضر حفلاتها . جاءها فى الليلة الرابعة أو الليلة الكبيرة فى زار ابنة الباشا السابق ، حيث أعدت وليمة لم تشهد لها مثيلا من قبل . وكانت كعادتها تنوى أن تبقى وجوقتها مع باقى المدعوات حول المريضة طوال الليل حتى الصباح حين تذبح الذبائح فوق رأس المريضة التى تفتح فمها

لتتلقى الدماء الساخنة التى تسيل بعد ذلك على ملابسها البيضاء .

كانت الأسطى ريحانة تواصل الدق فى أثناء طهى الطعام ، لكن قلبها لم يسعفها هذه المرة فأصابتها الأزمة ، وتم نقلها فورا إلى مستشفى قريب ، لكنها أسلمت الروح بمجرد بلوغه . فنقلت إلى بيتها الأنيق المطل على نيل الروضة . وفى الصباح تم إبلاغ الأصدقاء والأحباب والمريدين الذين جاءوا من كل أنحاء القاهرة ليشاركوا فى جنازة العزيزة الراحلة . سارت زوجة الأمير إلى جانب زوجة الخفير وقد جرف الحزن الجميع . لياليها لا يمكن أن تنسى ! الرضا والسماح ياأسيادى! قطع السكر ماء الورد ! روائح الطيب والمسك والبخور ! الملاءة البيضاء والخروف الأبيض ذو الرأس الأحمر المذبوح فى الثانية صباحا ! نصب الكرسى وإطلاق البخور حوله ! دقات الطبول والدفوف مع الأناشيد الصادحة ! الثياب الجديدة البراقة ذات الألوان المتعددة والأجساد الراقصة المنطلقة من عقالها يمنة ويسرة ، والمتصببة بالعرق الفواح بمسك المباخر وسط رضا الأسياد وسماحهم !

عادت جمالات من المقابر وقد بذلت أقصى ما فى وسعها لمواساة زوجها كافور الذى لم يكن له فى الدنيا سوى أمه التى أوصتها به خيرا فى العربة التى أقلتها إلى المستشفى . ولاشك أنها أغمضت عينيها إلى الأبد وهى مطمئنة أنه بين يديها الأمينتين اللتين خدمتها بمنتهى الوفاء والإخلاص عشرين عاما . ولم يضع وفاء جمالات وإخلاصها هباء . وضعت فيها ثقتها بكل ثقلها ، وزوجتها من ابنها ، وفى النهاية تركت لها صولجانها تمسك به ، وعرشها لتتربع عليه برغم حقد المنشدة بنفسج التى قضت عمرها كله فى خدمتها ، وكانت تأمل أن تتحول إلى كودية

بعد أن تعدت الخمسين ، لكن يبدو أنه كتب عليها أن تقضى عمرها منشدة فى ركاب الكودية !

أقيم سرادق ضخم فخم سد طريق كورنيش الروضة ، وتألقت أنواره حتى كوبرى الجيزة . كان رحيلها فخما مثل حياتها تماما . اصطفت السيارات الفارهة الفاخرة للمعزين الذين جاءوا من كل حدب وصوب ، ليستقبلهم كافور عند باب السرادق وهو يكاد يسقط إعياء وحزنا وقنوطا . أما جمالات فقد تصدرت القاعة الرئيسية فى الدور الأول من الفيلا لتستقبل المعزيات الأنيقات اللاتى أبرز السواد جمال بشرتهن وبياض وجوههن المتطلعة فى شوق ومكابدة إلى جمالات : خير من يواصل رسالة ريحانة ! والتى لم يكن يقلقها سوى زوجها كافور الذى تركته وحده ليستقبل الرجال !

ومع انتصاف الليل انصرف المعزون والمعزيات ، وأسرع العمال بهدم السرادق وإطفاء الأنوار المتلألئة . وأخيرا أغلقت غرفة النوم عليهما بعد أطول يوم فى حياتهما . انفجر كافور باكيا بين أحضانها كالأطفال . لم يتصور الحياة يوما بدون أمه التى عمل لها مساعدا وسكرتيرا بعد حصوله على الشهادة الإعدادية من مدرسة المنيل. لم يشعر بميل إلى إكمال دراسته كما أن أمه كانت قد كتبت كل ثروتها الضخمة باسمه عند إصابتها بأول أزمة قلبية منذ عامين ! مما أشعل حقد بنفسج على جمالات التى واصلت زحفها لترث الأسطى فى كل شىء : ابنها وبالتالى ثروتها كلها ، فى حين ظلت هى عاجزة عن التسلل إلى قلب الأسطى .

كانت الليلة حارة مشحونة برطوبة خانقة . لم تحتمل جمالات بكاء كافور وإن استمتعت بضعفه واستكانته . قدمت إليه قرصا منوما قوى

المفعول فاستلقى إلى جوارها ممددا وإن تقلب من حين لآخر ! أما هى فلم يتسلل النوم إلى عينيها السوداوين الواسعتين العميقتين المتألقتين بوميض حاد خاطف برغم الظلام المطبق على الغرفة والسكون المحيط بها . حاولت أن تستدعى النوم بإرادتها الحديدية كى يلمس جفونها بأنامله الرقيقة الحانية ، لكنه سرعان ما تراجع بخدره دون أن يغلق جفونها بين لجحه . لم تكن تحب الاستجداء فتركته يرحل عنها وشريط حياتها بصوره وألوانه المتعددة يتسلل من ماضيها السحيق إلى الحلم الذى أصبح حقيقة وسيفا تنتقم به من كل الذين داسوا على صباها الغض حتى كادوا أن يدفنوه تحت طبقات الوحل المتكاثف لولا إرادتها وعقلها الذى لم يتخل عنها لحظة واحدة .

تذكرت يوم صحبها أبوها الفلاح الأجير المعدم من قريته أبو الغيط ولم تكن قد جاوزت الثانية عشرة من عمرها . كانت كبرى إخوتها العشرة الذين أنجبهم أبوها من زوجتين . كان ينوء بالحمل الثقيل ، وبمجرد وفاة زوجته الأولى ، أم جمالات ، وبداية اضطهاد زوجته الثانية لها ، قرر اصطحابها إلى بيت ابن عمه الذى يعيش فى القاهرة واستطاع أن يكون ثروة مفاجئة من تجارة الخيش والخردة فى وكالة البلح . صحيح أنها ستكون خادمة هناك ، لكن صلة الدم ستجعل منها الفرع الفقير فى العائلة التى لابد أن تثق فيها ثقتها فى أحد أعضائها .

إنها تتذكر ذلك اليوم البعيد المدفون فى بطن الماضى كما لو كان بالأمس. لم يبت أبوها ليلته بل سرعان ما عاد إلى أبى الغيط بمجرد أن سلمها إلى ابن عمه كما لو كان يريد التخلص منها فى غمضة عين . وبالفعل لم تره بعد ذلك . لم يحدث أن جاء لزيارتها طوال السنوات

الثلاث التى عاشتها فى خدمة ذلك البيت .

تفتحت عيناها على حياة لم تكن تخطر على بالها . بعد الحياة فى بيت من الطوب اللبن لا يحتوى على أكثر من غرفتين ، وشرب ماء الترعة الذى اعتادت نقله يوميا إلى الزير ، واللعب مع الأطفال الحفاة العراة فوق روث البهائم ، والتهام الخبز الأسود المقدد مع الجبن المشحون بكل أنواع الدود ، إلى شقة فى الدور الثالث فى عمارة شاهقة تطل على نيل المنيل المرصع بالأشجار الضخمة وشريط الخضرة الموازى للنيل ، ودار للسينما متوغلة فى بطن النهر ، تعرض أفلامها فى الهواء الطلق بحيث كانت جمالات تتسلل إلى الشرفة بعد الانتهاء من أعمال البيت لمتابعة الصور المتحركة التى لم يصل منها سوى أضوائها وظلالها .

كانت راضية بعملها المتواصل منذ بزوغ الفجر وحتى حلول المساء : تنظيف الغرف ، وترتيب الأسرة ، ومسح البلاط ، وطهى الطعام الذى سرعان ما تعلمته بمهارة نادرة . كانت الشقة واسعة فسيحة من سبع حجرات مثل عدد الأولاد والبنات ، ومع ذلك استعذبت الشقاء النظيف كلما تذكرت روث البهائم والعفن المنطلق من أكوام القمامة والناموس والبق والبراغيث التى تبدأ فى امتصاص الدم منذ غروب الشمس وحتى بزوغ الفجر . ولم يكن هناك ثمة حوار حقيقى بينها وبين الأبناء إلا عندما يطلبون منها إحضار جورب أو تلميع حذاء أو غسيل منديل . لكن الوضع مع بسيم الابن الأكبر كان يتطور تدريجيا إلى أن أصبح مختلفا تماما عن موقف إخوته .

كان بسيم فى السنة الثانية فى كلية التجارة عندما قدمت جمالات لتعيش معهم . كان الوحيد الذى امتزجت نظراته إليها وكلماته معها

بابتسامة عذبة تحولت بعد ذلك إلى قطع من الملبن والشيكولاته ، لم يخف معناها عن ذكائها المبكر . رأت لأول مرة براكين جسدها وتلاله وهى تبرز عالية شامخة بمجرد بلوغها الثالثة عشرة . لم تكن فى قريتها مرآة لترى فيها نفسها سوى المرآة الصغيرة الكالحة المشروخة التى كانت أمها تستخدمها فى التقاط شعيرات وجهها . أما فى بيت بسيم فوجدت أكثر من مرآة بطول القامة ، وكثيرا ما انتهزت فرصة خلو الشقة لتتعرى كما ولدتها أمها وتتأمل المرتفعات والمنحنيات . وتداعب الشعيرات المتكاثفة أسفل البطن وأعلى الفخذين فتشعر بتوتر لذيذ يكاد يمزج جسدها إربا .

لم تكن حياتها مملة رتيبة . كانت الست عدالات أم بسيم من مدمنات الزار وحفلاته الصاخبة التى لم تكن بالشىء الجديد على جمالات التى قدمت من قرية أبى الغيط التى تخرج فيها معظم الكوديات والمنشدات فى مصر ، والتى يقام فيها دورى يجتمع فيه مشاهير الطائفة ومساعدوهم للتعارف والتشاور . وكثيرا ما جلست جمالات فى صباها المبكر بالقرب من أبواب البيوت التى أقيم فيها الزار لعلها تصيب قطعة من اللحم أو كعكة مغطاة بالسكر الناعم . وقد شاهدت بنفسها الأسطى ريحانة وهى تدلى بنصائحها الثمينة للكوديات والمنشدات الجديدات دون أن يلحظ أحد وجودها وهى مندسة بجسدها الصغير بين المقاعد الخيزران . ولذلك لم تكن المرة الأولى التى ترى فيها الأسطى ريحانة عندما قدمت لإقامة الزار فى شقة الست عدالات التى كانت تؤمن إيمانا جازما بأن الثروة المفاجئة التى هبطت على زوجها كانت نتيجة طبيعية لرضا الأسياد عن أسرتها ، وهو الرضا الذى يجب أن تحافظ عليه بكل الوسائل وفى مقدمتها إحياء حفلات الزار ، خاصة وأن زوجها عبد الفضيل كان

يشاركها الإيمان بنفس القوة والحماس .

وكانت نزهة جمالات الحقيقية التى تنتظرها بفارغ الصبر عندما تخرج مع الست عدالات لشراء لوازم نصب الكرسى استعدادا للحفل ، فتتردد معها على الموسكى والغورية وتحت الربع لشراء المكسرات بأنواعها ، والحبوب المختلفة ، والبلح الجاف ، والسكر والصابون ، والتفاح والموز والبرتقال والشمام والعنب ، وأنواع مختلفة من الحلوى والملبن والجبن ، واللحوم المجففة ، والكعك المغطى بالسكر إذا لم يتم صنعه فى البيت ، واللبن وزجاجة من الخمر ، والشموع الكبيرة والصغيرة وغير ذلك من متطلبات نصب الكرسى . وتعود السيارة محملة يقودها سائق المعلم عبد الفضيل ومساعده فى الإشراف على حركة اللوريات التى تنقل الخردة والخيش بين المخزن والعملاء .

كانت جمالات قادرة على تجاوز كل ما يعكر الصفو ، ذات مرة صفعها عبد الفضيل على وجهها ، وكثيرا ما نهرتها الست عدالات وسبتها وهددتها بالطرد ، ومع ذلك سارت الأمور فى مجراها وهى تجتر بين الحين والآخر سعادتها بنظرات بسيم وابتساماته ، ومهرجانات الزار التى لا يخلو منها البيت ، والتى أوشكت أن تلتهم الثروة المفاجئة التى هبطت على عبد الفضيل الذى أوشك أكثر من مرة أن يصارح زوجته فى مسألة ضغط المصروفات الباهظة ، لكن يبدو أن رعبه من غضب الأسياد كان أشد وطأة من أية فكرة يمكن أن تسيطر عليه . وهو الرعب الذى استمتعت به جمالات للغاية ، إذ لولاه لحرمت من أروع مباهج حياتها .

كان حماس جمالات فى خدمة حفلات الزار حماسا متدفقا تلقائيا

لدرجة أثارت إعجاب الأسطى ريحانة نفسها ، إعجاب لم يخف على لماحية جمالات التى كانت رهن إشارتها فى كل ما تطلبه ، وعندما علمت الأسطى بأنها قريبة لعبد الفضيل بك ويتيمة وقادمة من قرية أبى الغيط عرضت عليها العمل معها خلسة ، لكن جمالات ، برغم ترحيبها وسعادتها ، لم تشأ أن تخون العيش والملح على حد قولها ، مما رفع من مكانتها فى عينى الأسطى ، وذلك برغم رغبة جمالات الدفينة فى العمل بالزار فى المستقبل بعد أن أدركت أنه الوظيفة الوحيدة التى يمكن أن ترتفع بها إلى مجتمع السادة . فقد تمرست بكل أسراره وأناشيده وطقوسه ودقاته فى زمن لا يمنح فرصة للأميين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة من أمثالها . وعادت الفكرة تلح عليها أشد الإلحاح بعد زيارة قامت بها الست عدالات للأسطى ريحانة واصطحبت فيها جمالات التى بهرت بالقصر الصغير الذى تقطنه وتملكه الأسطى ريحانة ويطل على نيل الروضة ، والذى تنام فيه الآن إلى جوار زوجها كافور الذى لا يزال يتململ فى نومه الثقيل . وكانت الأسطى قد استقبلتهما فى القاعة التى استقبلت فيها جمالات الزائرات اللاتى قدمن للعزاء فى وفاتها . إن دوامة الحياة والموت لا تترك أحدا فى مكانه .

أما بسيم فقد تحولت نظراته وابتساماته إلى ملامسات عابرة كأنها أتت بمحض الصدفة . ذات مرة ربت على ثديها ضاحكا بلا معنى وبلا مناسبة ، ومرة أخرى دس نفسه خلفها فى المطبخ بحجة إحضار طبق ، ومرة ثالثة كانت جالسة على مقعد خشبى صغير منخفض تدق بعض فصوص الثوم فى جرن فوق بلاط المطبخ ، فإذ بها تشاهد قدميه فى مواجهتها ، وعندما رفعت عينيها فوجئت بعينيه تلتهمان ما بين فخذيها

المنفرجتين فأسرعت بضم ساقيها ، لكنه ابتسم ومضى إلى الحمام ، ومرة رابعة كانت تنام كعادتها على فراشها الذى تمده كل ليلة فى المطبخ . كانت ليلة حارة بحيث نفضت الجلباب عن فخذيها واستسلمت تماما للنوم . لكنها بعد ساعات لم تعرف عددها شعرت بيد تدلك فخذيها ، وعندما فتحت عينيها رأت شبحه فى ضوء المصباح الخافت فى مدخل المطبخ ، انتابها الرعب فتململت فى رقادها ، لكنه أسرع بدخول دورة المياه وإغلاق الباب خلفه .

لم تنم جمالات ليلتها تلك كليلتها هذه تماما . فكرت كثيرا وقلبت الأمر على وجوهه المتعددة . تساءلت كثيرا دون العثور على إجابات محددة ! هل يمكن أن تستخدم جنون بسيم بجمالها وسحرها سلاحا كى توقع به فى غرامها فيطلب يدها ، خاصة وأن أباه ابن عم لأبيه وليست مجرد خادمة فى البيت ؟! لكنها سمعت كلمات متناثرة من أبيه عن نيته من تزويجه بعد التخرج من نوال ابنة زميله بسيونى صاحب ورشة الخراطة الكبيرة فى وكالة البلح ، خاصة بعد أن التهمت حفلات الزار كل أرباحه وتحولت إلى ابتلاع رأسماله ! كذلك فإن نوال هى الوريث الوحيد لثروة أبيها ومشروعاته ، إذ أن لها أخا وحيدا متخلفا عقليا وتم إيداعه فى إحدى مصحات الأمراض النفسية والعصبية ! وقد تزوج أبوها مرة أخرى كى ينجب ولداً يرثه ، لكنه لم ينجب على الإطلاق هذه المرة . ولذلك أصبحت نوال مطمعا لمعظم شباب وكالة البلح ، لكن نظرا لصداقة العمر الوطيدة بين عبد الفضيل وبسيونى فإن الوعود استقرت على أن بسيما لنوال ونوال لبسيم بمجرد تخرجه !

اجتاحت جمالات غيرة قاتلة من تلك الفتاة الهزيلة ذات الوجـه

الشاحب ، التى دعاها عبد الفضيل ذات مساء هى وأسرتها على العشاء ، واضطرت جمالات إلى أداء واجبات الخدمة تجاههم . لكن الذى أسعدها أن بسيما لم يكن مهتما بالحديث إليها بقدر اهتمامه بحركات جمالات الراقصة فى غدواتها وروحاتها بين المطبخ وغرفة المائدة ، وذلك برغم جلوسه إلى جوارها . لكن الزمن الأغبر كان قد كتب لهذه الهزيلة الشاحبة القبيحة ورشة للخراطة والميكانيكا تدر الآلاف ، وعمارة شاهقة من عشر طوابق تقع فى شارع القصر العينى . ومهما شاركتها أمها وزوجة أبيها الميراث ، فإن ثروة نوال لا تزال تشكل إغراء لأى شاب باحث عن الحياة الرغدة . لكن أى نوع من الشباب كان بسيم ؟! هذا هو السؤال الذى كان على جمالات أن تبحث عن إجابة مقنعة عنه قبل أن تغامر بأية خطوة لا تعرف عواقبها !

طغت موجات الحيرة على جمالات : هل تصد بسيما وتوقفه عند حده أم تترك له الحبل على الغارب ولكن بحساب ؟ ! لقد بلغت الآن الخامسة عشرة من عمرها ولا يعقل أن تقضى حياتها خادمة دون ذنب جنته ! إن نظرات بسيم لا تفارق جسدها طيلة وجوده بالبيت خاصة بعد أن عطلت الدراسة فى المدارس والجامعات إلى أجل غير مسمى بعد اعتداء إسرائيل وانجلترا وفرنسا على سيناء وبور سعيد . ظل مرابطا بالبيت ليل ونهار بحجة استذكار محاضراته وكتبه برغم أن الجامعة لم تفتح أبوابها سوى شهر واحد . لكن أمه تحمست للتعقل الذى هبط عليه فجأة وجعله يستقر ويعمل لمستقبله ، خاصة أنه كان فى سنة التخرج !

واصل بسيم مناوراته وملامساته وابتساماته وضغوطه التى انتقلت من مرحلة التلميح إلى التصريح . ولم تمانع جمالات ولكن بقدر . كانت

واثقة أنه سيجد عندها من جمال وإثارة ومتعة ما لن يجده عند نوال . وهى على استعداد أن تخدمه وتكافح من أجله حتى يصبح رجلا ولا كل الرجال . وقد سمعته ذات مرة يقص على أخته قصة فيلم رآه وهو فى غاية السعادة والنشوة . فقد انتهى الفيلم بزواج ابن الأصول الغنى من خادمته الجميلة المثيرة التى وقع فى غرامها منذ بداية الفيلم . وهى ليست بخادمة على أية حال من الأحوال وإنما بمثابة ابنة عمه وإن كانت لم تنل حظها من الحياة .

تسلل النعاس بطيئا مترددا إلى جفون جمالات وهى راقدة إلى جوار كافور الذى لا يزال يتقلب كأنه يعانى من كابوس ما . استراحت مرحبة لهذا الخدر القادم الذى سيخلصها من الأحداث القديمة التى تصر على مهاجمتها فى عنف ودون هوادة لسبب لا تعرفه . ربما لأنها اللحظة التى أصبحت فيها سيدة موقفها بعد رحيل الأسطى ريحانة ، والتى أفسحت لها الطريق للانتقام الذى ظل كامنا فى أعماقها فى انتظار هذه اللحظة .

كانت على وشك أن تغفو ، لكن الانتقام السارى فى عروقها كالدماء الساخنة مع حدث قديم حفر فى شرايين قلبها ، جعل موجة النعاس تنحسر عن شاطئها لتتركه تحت رحمة هجير الذكريات التى لازمتها كى تلسعها بسياط من نار من حين لآخر . وها هى الآن تلسعها أشد ما يكون اللسع لتترك عينيها مفتوحتين فى ظلام الغرفة الذى لا يريد أن ينحسر حتى لا تتسل أضواء الفجر من خصاص النافذة المطلة على نيل الروضة .

كان المعلم بسيونى أبو نوال قد سافر إلى ألمانيا لشراء أحدث آلات الخراطة لورشته . وعند عودته على الباخرة القادمة إلى بورسعيد قامت

إسرائيل بعدوانها على سيناء واحتلت إنجلترا وفرنسا بورسعيد ، فاضطرت الباخرة إلى تغيير مسارها إلى بيروت لحين فتح الموانى المصرية مرة أخرى . وتمنت جمالات أن تدك الطائرات الحربية باخرة المعلم بسيونى حتى تغرقها ! لكن شيئا من هذا لم يحدث ! فسرعان ما توقف إطلاق النار وتم الاتفاق على انسحاب القوات المعتدية من بورسعيد . وغيرت باخرة المعلم بسيونى خط سيرها حيث رست فى الإسكندرية . وبمجرد عودته إلى القاهرة قرر عبد الفضيل أن يقوم بزيارته للتهنئة بسلامة الوصول ، هو وكل أفراد عائلته لإظهار مدى الإعزاز الذى يكنه له .

وفجأة سقط بسيم مريضا بانفلونزا حادة لزم على أثرها الفراش ، وادعى أنها نتيجة لإرهاقه المستمر فى الدراسة ! وأسف أبوه لعدم تمكنه من زيارة عم بسيونى معهم والتمتع بصحبة خطيبته نوال ، وقرر أن يصطحبه فى زيارة خاصة بعد أن يشفى . وكانت جمالات قد صدقت فى أول الأمر حكاية مرضه بالأنفلونزا ، ثم بدأ الشك يساورها عندما قدمت إليه كوبا من عصير الليمون وهو فى فراشه ففاجأها بطبع قبلة ساخنة على وجنتها . لكنها ظنت أنه يريد التهرب من لقاء نوال التى لم يكن يحتمل رؤيتها ، ولم تتصور أنه كان يخطط لأبعد من ذلك !

ذات عصر فى منتصف ديسمبر من ذلك العام ١٩٥٦ ، والذى يبدو الآن وكأنه عام مضى منذ شهور فقط ، دب النشاط فى البيت وارتدى الجميع أثمن ما عندهم من ثياب ، حتى الابنة الصغرى التى لم تكن تتجاوز السنوات الخمس من عمرها ، وسرعان ما هبطوا لزيارة عم بسيونى الذى لابد أن يكون قد أحضر هدية لكل منهم من ألمانيا وفجأة

خلا البيت الذى لم يتبق فيه سوى بسيم وجمالات التى أسرعت إلى الشرفة للتدثر بالشمس قبل غروبها الوشيك ، ولإحساسها الغامض بشىء ما يسرى فى الجو دون أن تدرك كنهه . كانت الشمس تفترش سطح النهر الذى بدا وادعا من الطابق الثالث ، فى حين سار بعض الشباب بحذائه ، وجلس بعض المسنين على المقاعد الحجرية التى تطل عليه . أما العربات المنطلقة بطول طريق الكورنيش فلم تكن كثيرة وإن علت أبواقها فى ضجيج متقطع.كذلك بدت دار السينما الصيفية المتوغلة داخل النيل مهجورة ، وشاشتها صفراء فى شحوب وجه نوال ، ومقاعدها فى حاجة إلى إصلاح شامل .

فجأة سمعت جمالات صوته يناديها من الداخل . دق قلبها فى عنف وتجاهلته ، لكن النداء عاد أكثر علوا وحدة كالسيف الذى شق بطنها .م تخاف ؟! إنها لا تملك ما تخاف عليه سوى جسدها ! وطالما أن الله قد جعله بهذا الجمال والتفجر ، فلابد أن تشهره فى وجه من يطلبه ، حتى تحصل على ما تطلبه أولا ! وهى لا تطلب سوى الاستقرار والزواج مثل كل البنات فى هذه الدنيا ! فإذا كان بسيم يريدها ويحبها ، فليتزوجها فهى قرينته ولا يمكن أن تنافسها أخرى فى جمالها وسحرها ، وكل المرايا فى البيت تشهد على ذلك !

عاد النداء أكثر إلحاحا وتكرارا وتتابعا ، فلم يدق قلبها بعنف هذه المرة بل نهضت إليه فى ثقة مستجدة حيث كان جالسا فى فراشه وقد نفض الغطاء من على ساقيه متبرما من أنها تركته يعانى الوحدة والعزلة ، ثم طلب أن تجلس على طرف الفراش إلى جواره حتى يثرثر معها فى أشياء كان يتمنى أن يفضى بها إليها منذ زمن طويل ، لم تتراجع بل نفذت

ما طلبه لأنها أرادت أخيرا أن تقطع العِرق وأن تسيح الدم !

مد يده وأمسك بيدها فتركتها له ليعبث بكفها وأصابعها . اعترف لها بنبرات مرتعشة بعض الشيء بأن ما أصابه لم يكن أنفلونزا حادة وإنما كان مجرد لفحة برد عادية لم تلازمه أكثر من يومين ، لكنها أوحت إليه بادعاء الانفلونزا الحادة حتى يتهرب من لقاء نوال ، وحتى يستمتع بصحبتها بعد أن تأكد أنه لا يستطيع فراقها . لم تدهش جمالات بالاعتراف بل سحبت يدها منه فى رقة وهى تتساءل عما ينوى أن يفعله تجاهها إذا كان يحبها حقيقة ؟ !

جذب يدها مرة أخرى وانهال عليها بالقبلات الملتهبة والكلمات اللاهثة التى تؤكد حبه وعزمه على الزواج منها بمجرد تخرجه ، فهى قريبته ، وحبه لها يسرى فى عروقه ممتزجا بدمائه ، ولن يقف أحد فى طريق زواجه منها ، فبعد شهور سيتخرج وسيصبح سيد موقفه . تحولت الكلمات إلى صمت لاهث ، فرأت جمالات الرغبة تنضح على عينيه مع رجائه بأن تثبت هى الأخرى حبها له ! فليس الأمر مجرد كلمات أو نظرات أو ابتسامات أو لمسات متبادلة !

لم تتوقع جمالات أن تسمع أروع مما تلقته أذناها ! نطق بما نطق به قلبها مرارا وتكرارا ! الخوف كل الخوف الآن أن تصده أكثر من اللازم فيطير العصفور الذى أوشك على دخول القفص ! تركت يده تتسلل من كفها إلى داخل كم ردائها الواسع حتى بلغت إبطها فداعبت شعيراته التى نسيت اقتلاعها فى آخر حمام لها . سرت الدغدغة فى مسام بشرتها التى طغت عليها قشعريرة طاغية . دون تفكير أخرجت ذراعه فى رفق مؤكدة له حبها الجارف له وأنها ستكون طوع أمره بعد الزواج ، لكنه جلس

القرفصاء منكمشا دون أن ينظر إليها ولسانه المتلعثم يردد كلمات متقطعة تعبر عن غضبه من عدم ثقتها فيه ، وأنها لو كانت تحبه فعلا لما قاومته ، فليس بين العشاق حواجز ، ثم طلب منها أن تتركه وحده ليأسه وحزنه .

وضع رأسه بين ركبتيه مثلما يجلس المتسولون فوق الأرصفة وعند نواصي الشوارع . تدفق الحنان داخلها كأمواج ساخنة تصاعدت منها الأبخرة فغامت الرؤية أمامها ، لكنها توغلت داخل الفراش حتى التصقت به ووضعت ذراعها على كتفه فشعر بطراوة نهدها الناهد وتماسكه فى الوقت نفسه . تماسك للحظات ثم انفرط عقدهوانفتحت ذراعاه لتحتويها فى قبلات ساخنة ملتهبة أشعلت داخلها ناراً ذات وميض فسفورى لم تحترق بها من قبل . انداح عقلها إلى صخور أعماقها المظلمة ، واصطلى جسدها بسعير الأنثى اللافح ، فذابت بشرتها الشمعية تحت وابل النيران المنطلقة من فوهته .

لم تستوعب أبعاد ما جرى لها . لكنها وجدت نفسها كما ولدتها أمها ، وجسده العارى المتصبب عرقا فى قلب ديسمبر يطبق عليها . لم تلفظه بل تشبثت به ، والبركان يجمع حممه المنصهرة كى ينطلق وسط السحب والآهات والتنهدات عند انطباق الأفق على كل الموجودات . إنه رباط الأبد ! لن يستغنى عنها أبداً ! لن تستطيع نوال أو غيرها أن تسقه ما يرشف الآن من رحيق الحب وعصيره الصافى !

ارتوى فارتمى إلى جوارها وهو يحدق فى السقف فى حيرة لم تخف عليها فى جلستها التى تخلت عن استرخائها تدريجا . أسرعت إلى ارتداء ملابسها غير عابئة بالجرح السارى بالألم بين فخذيها ، فى حين قلدها

تلقائيا دون أن تلتقى نظراته بوجهها . ضغطت على ألفاظها وهى تؤكد له أن الزواج سيصبح ضرورة ملحة عاجلة إذا حملت منه ، فتمتم بأصوات لم تتبين معانيها . كررت كلماتها وإحساس بالندم يشق داخلها كالسكين ، فهربت منه إلى دورة المياه .

عاشت أسبوعا بين الحيرة والقلق والندم والخوف والألم والأمل . كانت تقوم بعملها بحركات آلية لم تخف عن ست البيت التى سألتها عما إذا كانت تكتم شيئا لكنها أنكرت بشدة ضاعفت من دهشتها ! أصبح أى مغص عابر كفيل بأن يطير بها على أجنحة الرعب فأقسمت بينها وبين نفسها ألا ترضخ مرة أخرى له . وعدها بالزواج أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يراودها عن نفسها بإلحاح وصراحة شديدين . وبرغم أنها لم تنكر اللذة التى خدرتها تماما ، وحاولت مرارا استرجاعها فى مخيلتها ، فإنها قاومت الغرق بين لججها مرة أخرى . شىء غامض داخلها أشاع فيها مس كهربى من الخوف الذى جعلها تنام على فراش الشوك . إنها لاتشك فى حب بسيم لها ورغبته فيها ! لكن ما العمل إذا لم يستطع الوقوف فى وجه أبيه الذى يخطط علانية لتزويجه من نوال ؟ !

كان كل يوم يمر — دون أن يطرأ جديد — عيدا عند جمالات ! لكن مع مرور الأسبوع الثانى تذكرت أن الطمث لم يعاودها فى ميعاده ، برغم انتظامه الدقيق منذ بلوغها الثانية عشرة من عمرها . ظلت تنتظره كطفل يتيم يحلم بمجىء أبيه أو أمه . قبع الرعب على قمم الأيام فى مرورها المتثاقل مما دفعها دون أن تدرى إلى أن تقف سدا منيعا فى وجه كل مناوراته ، بل أصبحت تخفى كل جزء من جسدها ، إذا أمكنها ذلك ، بعيدا عن نظراته السائلة المستجدية ، بعد أن سدت أذنيها أمام كلماته الملحة الضاغطة .

ذات ليلة استيقظت فى فراشها بالمطبخ على مغص غريب يسرى فى بطنها كرياح أمشير الترابية . جلست فى الظلام ودقات قلبها تواكب إيقاعات بطنها . تحسست ثدييها فبدا عليهما انتفاخ غريب ! انتهزت فرصة نوم الجميع فذهبت إلى الحمام . أضاءت النور وأغلقت الباب . كشفت عن نهديها فى مرآة الحوض فوجدتهما نافرين منتفخين أكثر من اللازم . وجدت يدها تلطم خدها فى صفعة رددت مربعات القاشانى الأبيض اللامع صداها . أوشكت على البكاء والنحيب لكنها أمسكت خوفا من أن يستيقظ أحد .

تململ كافور فى فراشه مع شخير غير منتظم صادر من شفتيه المنفرجتين . شعرت جمالات بجسدها المشدود فوق الفراش لكنها عجزت عن طرد لجج الذكريات وأمواج الماضى التى أغرقت شاطئها حتى نضح فراشها المبتل بعرقها فى تلك الليلة الحارة الخانقة .

لا تزال تشعر بآثار أصابعها الساخنة على خدها . أطفأت نور الحمام وعادت إلى فراشها لكن النوم لم يعد . لم تدر كم الساعة ؟! تذكرت أنها كانت ليلة رأس السنة ! لكن الأسرة قضتها بالبيت بين أطباق اللحم وكؤوس النبيذ ، ونام الجميع بمجرد أن دقت الساعة منتصف الليل . فقد وضعت قيود الإضاءة على الشوارع والأماكن العامة منذ العدوان الثلاثى ولم ترفع حتى تلك اللحظة ! صحيح أن الإنجليز والفرنسيين انسحبوا من بورسعيد منذ أسبوع ، لكن اليهود ظلوا فى سيناء شهورا بعدهم !

أحداث لا تهمها كثيرا لكنها حفرت فى ذهنها بماء النار . تسللت إلى أنفها رائحة بقايا اللحم والسمك المشوى فى الأطباق التى صنعت هرما

فوق قاع الحوض ، والتى عليها غسيلها فى الصباح . انداحت هبات المغص على بطنها الذى ضغطت عليه بذراعها دون تفكير . تراجعت كل الأفكار والمشاعر عندما رأت فى جلستها شبحا يتحرك فى ضوء المصباح الخافت المخفف لعتمة المدخل المؤدى إلى المطبخ . كان الشبح يتلفت يمنة ويسرة حتى اقترب من فراشها محاولا تحديد موقعه . شهق بسيمَ عندما سمع فحيحها يطلب منه العودة إلى فراشه حتى تمر الليلة على خير ! لكنه تحسس الفراش وجلس على حافته ففاحت من فمه رائحة النبيــذ ! انكمشت فى الركن القصى لكن عينيه كانتا قد اعتادتا الظلام فتبين ملامحها وهو يزحف حتى التصق بها . شعرت بسخونة جسده تشع من بيجامته الصوفية وتلفح جسدها المنتفض من البرد والخوف . صارحته بصوت أجوف من أعماقها السحيقة بأنها حامل منه وعليه أن يتزوجها ، وإلا اعترفت لأبيه بكل شيء ، فإن شرفها من شرف العائلة كلها . أحاطها بذراعه وطلب منها ببساطة أن تجهض نفسها فهو لا يمكن أن يتزوجها قبل أن يتخرج ، ثم انهال على وجهها وعنقها بالقبلات الساخنة اللزجة المبتلة وهى تتمتم بأنها لا تستطيع قتل نفس .

رفسته فى بطنه بساقين من حديد فوجد نفسه كومة فوق بلاط المطبخ وصرخات جنونية صادرة كطلقات المدفعية المضادة للطائرات من فمها . نهض منتصبا واندفع كالصاروخ فاصطدم بعنف فى باب المطبخ لكنه منع نفسه من السقوط وذاب كفص الملح .

لم تدر جمالات حقيقة ما فعلت ! لكنها عادت إلى حواسهـا أو . حواسها عادت إليها عندما سمعت أصواتا عالية مستفسرة صادرة من غرفة نوم والدى بسيم ، ثم وقع أقدام ثقيلة مع الأضواء التى سطعت فى

الصالة وتدفقت فى المطبخ الذى دخله عبد الفضيل وعدالات . أضاء مصباح المطبخ فعشى بصر جمالات فى جلستها وسط فراشها الأشعث وهى عاجزة للحظات عن الرد على استفسار السيد عبد الفضيل عن مصدر الصرخات وسببها ، لكنها وجدت لسانها ينطلق دون إرادتها ليقص عليه مأساة اعتداء بسيم عليها وحملها منه ، ثم محاولته تكرار الاعتـداء ، وحدقات العيون تتسع وتجحظ ، والكرات السوداء تتراوح بين اليمين واليسار كبندول الساعة .

ران صمت رهيب مر كدهر وجمالات تنتفض واقفة فى فراشها ، وعدالات تدق على صدرها غير مصدقة ، وعبد الفضيل يتغلب على حيرته بالتهديد بطردها فورا إذا ثبت كذبها ، والانطلاق إلى غرفة بسيم حيث أضاء النور فوجده يغط فى النوم ، بل علا شخيره فى براءة الذئب من دم ابن يعقوب . تغلب عبد الفضيل على موجة الشك داخله وسعد لمنظر ابنه فأطفأ النور وعاد أدراجه وقد تربعت صورتا بسيونى ونوال على عرش تفكيره .

قطع حبال الصمت بين جمالات وعدالات بتكذيبها صارخا طالبا منها أن تخرج من بيته فورا برغم توسلات عدالات بأن ينتظر حتى الصباح . لكنه جذبها من شعرها معلنا فى صراخ براءة ابنه وتربيتـه الشريفـة النظيفة ، وأن عليها أن تعود إلى الحيوان الذى أغراها أو أغرته . صرخت محاولة تخليص شعرها وطالبة العودة إلى أبيها فى قريته ، لكن عبد الفضيل أكد لها أن أباها يوم أتى بها منذ ثلاث سنوات كان — قد تخلص منها إلى الأبد ، وها قد جاء دوره ليتخلص منها هو الآخر ، فمكانها الشوارع بين الساقطات والمتشردين .

ألقى بها إلى خارج المطبخ فانطلقت تعوى إلى غرفة بسيم وخلفها عبد الفضيل يلهث . هجمت عليه وأجلسته عنوة فى فراشه فى حين استيقظ الأولاد والبنات فى الغرف المجاروة لكنهم لم يجرءوا على الخروج منها برغم فزعهم وحب استطلاعهم القاتل . تظاهر بسيم بالفزع تحت وطأة كابوس كان يمر به ، والتنبه إلى صراخها الذى يطالبه بالاعتراف بكل ما حدث ، لكنه ينظر إليها كمن لا يعى ما تقول . هزته فى عنف وهى تصب فى أذنيه تفاصيل ما فعله معها ثم سؤال كالسيف من أبيه عن حقيقة ما تقوله ، أنكر بسيم على أثره معرفته بأى شىء مما تدعى !

جذبها عبد الفضيل مرة أخرى من خصلات شعرها وانهال عليها بأقذع السباب والصفعات على وجهها ، واللكمات فى صدرها وبطنها فأحست بسكين صدئة تنهش أحشاءها وتمزقها . ولم تفلح محاولات تدخل عدالات لإطفاء الحريق ، فى حين ظل بسيم ينتفض فى فراشه ويقسم أغلظ القسم بأنه لا يدرى شيئا عما قالته وإن كان على استعداد للزواج منها إذا كان فى هذا إنقاذا لشرفها الذى هو شرف العائلة كلها !

سمع عبد الفضيل كلام ابنه فزاد جنونا على جنون ! جرّها من الغرفة وعدالات خلفهما لا تدرى ماذا تفعل ؟! فى حين اختفى بسيم تحت الغطاء من أخمص قدمه حتى أم رأسه . فتح عبد الفضيل باب الشقة وألقى بجمالات خارجا ثم أغلقه بهدوء . وجدت نفسها حافية وبقميص النوم الكستور تحت رحمة تيار السلم البارد . فكرت فى الدق على الباب لكنها شعرت بكدمات اللطمات واللكمات على وجنتيها وصدرها وبطنها الذى لا يزال يئن تحت وطأة السكين الصدئة التى تصول وتجول فيه . فكرت أن تدق على باب أحد الجيران لتبيت الليلة عنده ، لكن ماذا

كان فى جعبتها لتقوله وتشرحه وتفسره ؟ !

ظلت جالسة على درجة السلم وقد انطوت بجسدها المنهك على ركبتيها حتى تخفف بقدر الإمكان من آلام بطنها . عندئذ ومضت داخلها فكرة كالبرق فى سماء الغيوم المعتمة قبل هزيم الرعد . تذكرت الأسطى ريحانة ودعوتها القديمة لها بالعمل فى خدمتها . نهضت متجاهلة الألم جريا وراء الأمل فوجدت نفسها تعبر الشارع حافية حتى بلغت الشريط الأخضر المحاذى لكورنيش النيل .

تسلل الصقيع من قدميها إلى ساقيها ليحاصر جسدها ويمتزج بالألم . كيف تذهب إلى الأسطى ريحانة بهذا الشكل وفى مثل هذه الساعة المتأخرة التى لا تعرفها على وجه التحديد ؟ ! جلست منكمشة منطوية على نفسها فوق أحد المقاعد الحجرية بالقرب من دار السينما الصيفية . كان الظلام بل الإظلام يلف المدينة بين طياته طبقا لأوامر الدفاع المدنى ، التى انصاع لها القمر أيضا فاختفى تماما ، ولم يتبق سوى أضواء السيارات المارة بصخب راكبيها الذين يحتفلون ببداية السنة الجديدة ! نظرت إلى مياه النيل خلفها فوجدتها داكنة معتمة مخيفة ! سمعت حركة فى ركن قريب من مدخل دار السينما ثم مواء قطة داكنة جاءت تتمطى وتقفز فوق المقعد الحجرى لتتمسح بها ، فاحتضنتها جمالات ومسحت شعرها الناعم مرارا وتكرارا والدموع تسيل على وجنتيها عندما سمعت كركرة الشكر والامتنان من أنف القطة . شغلتها قليلا عن آلام بطنها التى امتزجت بإحساس لزج بسائل غليظ أعلى فخذيها !

هطل رذاذ خفيف جعل الشارع يلمع تحت قنوات الضياء الصادرة عن السيارات المارقة . انكمشت القطة فى حجرها الذى احتمت به من

الأمطار المتزايدة التى دفعت جمالات إلى الاحتماء بمدخل السينما . آنست القطة وحدتها فظلت تحملها ، لكن القطة لم تحتمل لفحات الصقيع ولطمات المطر فتملصت منها لتنزوى فى الركن الذى كانت تحتمى به !

نظرت جمالات إلى السماء فى تساؤل صامت : أليس لآلام البشر حدود ؟ ! فى اللحظة ذاتها سطعت كشافات سيارة قادمة من الشارع المواجه لمدخل السينما ، ثم استدارت لتحاذى الرصيف وصوت من الداخل يناديها أن تركب ! كثيرا ما رأت مثل هذه السيارات التى تتسكع إلى جوار الفتيات السائرات فى طريق الكورنيش ، ليركب بعضهن ويرفض البعض الآخر ! وهى ليست خيرا منهن ! لم يعد هناك ما تخاف عليه ! المهم أن تبيت ليلتها بين أربعة جدران ! مهما كان نوع هذا البيات ! والصباح رباح كما اعتادت أن تسمع النسوة العجائز فى طفولتها فى قرية « أبو الغيط » .

بمجرد أن اقتربت من الباب فتح لها . لمحت وميض عينيه فى أضواء السيارات المارقة تحت طيات الأمطار المنهمرة . هنأها ببداية السنة الجديدة فردت بألفاظ مرتعشة لم تصل إلى أذنيه . انطلق بالسيارة وهو يتأملها من حين لآخر . بلغ كوبرى الجيزة ثم انحرف يسارا عابرا ميدان الروضة ، ثم يمينا إلى أن وقف أمام عمارة قديمة تطل على كوبرى الملك الصالح . هبط من السيارة فتبعته دون كلمات أو نظرات وهى تتحكم فى قدميها بصعوبة فى الوحل المحيط بالعمارة . صعدت خلفه على درجات سلم حجرى فسيح ورائحة رطوبة عفنة تنبعث من بئره . فتح بابا ضخما وأضاء نور الصالة . ترددت فى الدخول فأمرها . أطاعت وهو يفحصها من الرأس إلى القدم ومن القدم إلى الرأس فيما يشبه

الذهول . أخفت قدميها خلف مقعد مجاور لكنه عبر عن ذهوله من سنها الصغيرة وهو يغلق الباب . سبقها إلى الحمام وأضاء نوره طالبا منها أن تدخل وتأخذ حماما ساخنا قبل كل شيء .

أطاعته ودخلت سعيدة بابتعاده عن الباب الذى لم تغلقه تماما . شغلتها آلامها النفسية عن آلامها الجسدية ومع ذلك شعرت بارتياح عندما تذكرت أنها قريبة من الأسطى ريحانة ، مجرد نصف ساعة سيرا على الأقدام على أكثر تقدير . تخلصت من ملابسها وهى تشعر بالامتنان لهذا الغريب الغامض الذى آواها تلك الليلة ، مهما كان غرضه ، فهو على الأقل أرحم من أقاربها الذين خدمتهم خدمة العبد للسيد . شهقت عندما وجدت الدماء اللزجة السميكة المتجلطة تلطخ أسفل بطنها وأعلى فخديها وملابسها الداخلية التى أسرعت بغسيلها ونشرها على مشجب معدنى . أشعلت موقد الغاز تحت قدر كبير ملأته بالماء وأزالت الدماء . سعدت بملمس الماء الساخن الذى أزال قشعريرة جسدها المنهك وخفف من آلام بطنها التى تركزت أخيرا فى الجزء الأسفل منه مما أوحى إليها بأنها على وشك الزوال .

جففت جسدها وارتدت القميص الكستور تاركة ملابسها الداخلية إلى أن تجف هى الأخرى . خرجت فوجدته ارتدى بيجامة حمراء لا تتفق مع سنه التى تقترب من الخمسين بعد أن دققت فى ملامحه لأول مرة وهو جالس أمام المائدة يصب نبيذا أحمر فى كوب أمامه بين بعض الأطباق المتناثرة التى لا تزال تحمل بقايا من لحم وأرز وبعض المزات . أشار لها بالجلوس فجلست أمامه . صب لها نبيذا فى كوب أخرى بدت وكأنها تستخدم للمرة الثانية أو الثالثة . تجرعت الكوب وامتعاضة على

وجهها حاولت إخفاءها . لم تتضاعف آلام بطنها بل سرى السائل الساخن داخلها وشرعت فى سرد قصة حاولت أن تكون متقنة قدر الإمكان ، لكنه نظر إلى ساعة الحائط القديمة دون أن يلتفت إليها وأمرها بأن تسرع ، فالفجر لم يتبق على بزوغه أكثر من ساعتين .

كان كل رعبها من أن تمنعها آلامها من إرضائه فيلقى بها مرة أخرى إلى الطريق ، فقد أصبحت خبيرة بما يريده الرجل تماما من المرأة . لكنه كان رقيقا للغاية على النقيض من بسيم ، فقد طلب منها أن تستمر فى مداعبته فى الفراش ، مع تدليك أجزاء معينة من جسده تحت الضوء الخافت ، قامت بالمهمة بمنتهى النشاط والهمة كخبيرة ذات باع طويل ونفس أطول فإذ به يغط فى النوم مع شخير متقطع . مدت عليه الغطاء وتدثرت إلى جواره بغطاء آخر ، لكن النوم لم يلمس جفونها فظلت تتأمل محتويات الغرفة الساكنة ذات السقف العالى .

علا شخير كافور وتكور فى نومه بحيث ارتطمت ركبتاه بجانبها الأيمن . ربتت على كتفه محاولة إبعاده فى رقة ، لكن قواها المنهكة أعجزتها فاستدارت لتنام على جانبها الأيسر فى الحيز الضيق الذى تركه لها . حاولت طرد الذكريات واستجداء أطياف النعاس ؛ فغداً يوم مرهق ستواصل فيه استقبال المعزين الذين لم يأتوا بالأمس ، لكن النوم كان شحيحا كالعملة النادرة .

ظلت مستيقظة حتى تسللت خيوط النور من خصاص النافذة العريقة . تسللت فى صمت من الفراش إلى الحمام لكن ملابسها الداخلية المنشورة لم تكن قد جفت بعد ، ومع ذلك ارتدتها . فكرت فى فتح باب الشقة والخروج خلسة لكنها خافت من أن يبلغ عنها متهما إياها

بالسرقة . آثرت البقاء إلى جواره فى الفراش حتى يستيقظ ، فهى لم تلق على يديه أى مكروه . يكفى أنه أنقذها من كابوس كاد أن يقضى عليها !

تأكدت أن ما جرى لها كان الإجهاض بعينه ، الإجهاض الذى طالما سمعت عنه من الست عدالات التى أجهضت نفسها مرتين بعد إنجابها لأبنائها السبعة ، لكنه فرق شاسع بين إجهاض وإجهاض ! عموما فإن محاولة اتصالها بالأسطى ريحانة أصبحت أكثر سهولة بعد أن تخلصت بل وتحررت من كل وشائجها التى كانت تربطها بذلك البيت الكريه الذى تتمنى أن تنشق الأرض لتبتلعه .

غفت عيناها إلى جواره و لم تستيقظ إلا لاهثة وهو مطبق عليها بجسده العارى . استجمعت كل قواها لتقهر الألم وتواصل احتماله حتى انتهى من مهمته وتركها لتغطى جسدها بقميصها وتجلس على حافة الفراش استعدادا لمغادرة الشقة . عاد وهو يجفف وجهه مطلقا صفيرا جزلا . أخرج من درج الصوان جنيهين ألقى بهما فى حجرها ، وأخبرها أنها يمكن أن تجده يوميا بعد الحادية عشرة مساء . نهضت فى صمت فأشار إلى حذاء نسائى قديم تحت السرير وطلب منها أن ترتديه . أطاعته برغم اتساعه وغادرت الشقة وقد رسمت على عينيها الذابلتين وشفتيها الشاحبتين ابتسامة تلاشت بمجرد خلوها إلى نفسها على السلم .

كانت الشوارع تضج بالسيارات والمارة والشمس التى افترشتها لتجفف أمطار الليل وأوحاله . حاولت التحكم فى الحذاء حتى لا يلتصق بالوحل وتجد نفسها حافية مرة أخرى . تحسست الجنيهين فى جيب القميص الكستور فسرت طمأنينة محببة داخلها ! صحيح !! لا أحد

يموت من الجوع ! حتى لو رجعت الأسطى ريحانة فى وعدها لها لسبب أو لآخر ، فإنها لن تموت من الجوع ! ولن تنسى أيضا الليلة الماضية التى لن تمر أبداً كأنها لم تكن ! ستظل تزحف ، حتى لو زحفت على بطنها ، حتى تصل إلى أعناق الذين أذلوها لتعصرها بقبضتها الحديدية !!

عبرت ميدان الروضة فى طريقها إلى كوبرى الجيزة وقد تقلصت أصابع يدها اليمنى دون أن تشعر بها . إنها لم تذهب إلى بيت الأسطى ريحانة إلا مرة واحدة ومنذ أكثر من عام ! لكنها لم تخطئه ! فهو فيلا صفراء تطل على النيل قبل مقياس الروضة ، يليها بوابة حديدية ضخمة تسد شارع الكورنيش تماما عند نهاية الجزيرة . لكن عليها الآن أن تفكر فى قصة مقنعة حتى لا تثير أية شبهات أو شكوك عند الأسطى . وجدت أن القصة التى فكرت فى أن تقصها على غريب الأمس لا بأس بها .

انحرفت يسارا بحذاء الكورنيش . ها هى الصنادل الصدئة المربوطة إلى الشاطىء الحجرى لا تزال متراصة فى نظام لا يعكر صفوه سوى بعض الأمواج التى تحدثها الصنادل المارة فى وسط النيل، فتحدث صليلا متعاقبا من جراء الاحتكاك فيما بينها ، ثم سرعان ما تعود سيرتها الأولى فى السكون والركود . فى المرة السابقة كانت تركب السيارة مع الست عدالات فلم تر ما تراه الآن بالتفصيل !

ها هى الفيلا الصفراء العريقة تبدو راسية راسخة ! مرت من الباب الحديدى صاعدة على درجات السلم الرخامى . ضغطت على زر الجرس ففتحت لها المنشدة بنفسج الباب . كم كانت صغيرة وجذابة فى تلك الأيام البعيدة !! سألتها عن طلبها فأكدت أنه يخص الأسطى شخصيا ! أجلستها على أحد مقاعد القاعة التى تصدرتها بالأمس وهى

تستقبل جمهور المعزيات فى وفاة الأسطى !

عادت بنفسج لتطلب منها مقابلة الأسطى . صعدت على السلم الداخلى خلف بنفسج التى تركتها تدخل إحدى الغرف المطلة على النيل والشمس الساطعة حيث كانت ريحانة تتناول طعام إفطارها مع ابنها كافور الذى لم يكن يتجاوز السابعة عشرة . ظل يتأملها للحظات مع أمه التى ركزت نظراتها على حذائها القديم الواسع ثم قميص نومها الذى لا يناسب الخروج إلى الشارع . كان منظر الجبن والمربى والزبد والبيض المقلى واللبن الحليب شهيا لدرجة تراجعت فيها آلام بطنها أمام زحف الجوع !

سألتها الأسطى عن أحوال الست عدالات دون أن تغادر نظراتها حذاءها وقميصها، فانفجرت باكية وهى تحكى بين الدموع كيف أنها لم تر سوى الإذلال والهوان فى ذلك البيت برغم أنها كانت ابنة عم لهم ، و لم يلقوا منها سوى الإخلاص والتفانى والوفاء كما شهدت الأسطى بنفسها . وما ذنبها إذا أراد ابنهم الأكبر الزواج منها ؟! طاش صواب أبيه عندما فاتحه ابنه بسيم فى الموضوع وظل يسبها ويضربها طوال الليل بتهمة أنها التى أوحت إليه بالفكرة لأنه كان يخطط لتزويجه من نوال ابنة زميله بسيونى فى وكالة البلح !

ذكرها الضرب والهوان بما لقيته من قبل على يدى زوجها فى القرية ، والذى لم يخلصها منه سوى سقوطه تحت أسنان النورج التى قطعت جسده إربا . ولا يعقل أن يلقى بها أبوها فى القاهرة ليواصل الآخرون إذلالها وتعذيبها لذنوب لم ترتكبها ، فما هكذا يكون رد الجميل ! وأنها جاءت لعرض إخلاصها وتفانيها ووفائها فى خدمة الأسطى ، ولتتأسف

لجحودها عندما تشبثت بالعمل فى خدمتهم يوم طلبت منها أن تتركهم . إن بعد نظر المعلمة وحكمتها لا مثيل لهما !

صمتت جمالات عن الكلام والبكاء وإن كانت دموعها لا تزال تنهمر غزيرة ! علت دقات قلبها فى انتظار أن تفتح الأسطى فمها ، فى حين لمحت كافورا وهو يتأمل وجهها وصدرها والجزء العارى من ساقيها . انفرجت شفتا الأسطى مرحبة بها على شرط ألا تعرف الست عدالات عن انضمامها إليها شيئا ، فهى زبونة قديمة لحفلات الزار ، ولا يمكن أن تفرط فيها . جاء الاقتراح على هوى جمالات فتوقفت عن البكاء مؤكدة أنها ستكون رهن إشارتها ، ولن يعرف أحد من طرف عم عبد الفضيل طريقا إليها ، فقد هربت منهم بلا عودة .

وافقت الأسطى واستدعت بنفسج كى تدخلها الحمام وتمنحها ملابس تليق بمن يعملون مع ريحانة ، مع تخصيص إحدى غرف البدروم لها . لم تكن نظرات بنفسج مريحة على الإطلاق لجمالات التى أكدت لنفسها عدم تهيبها أو خوفها من أية نظرات بعد أن جربت اللطمات واللكمات . دخلت الحمام للمرة الثانية فى ظرف ساعات حيث اغتسلت من بقايا الدم المتجلط فى حين سرى داخلها إحساس عميق بالارتياح جعل آلام بطنها توشك أن تتلاشى ، برغم نظرات بنفسج الصامتة الرهيبة .

ترددت جمالات مع ريحانة وبنفسج على كل حفلات الزار باستثناء تلك التى أقامتها الست عدالات . وأظهرت جمالات من الهمة والنشاط والتفانى والإخلاص ما جعل قيمتها تتضاعف بمرور الأيام عند ريحانة برغم محاولات الدس والوقيعة التى لم تسأمها بنفسج . كذلك وثقت

علاقتها بكافور الذى اشترك معها فى أداء كثير من المهام والخدمات للأسطى حتى تأكدت أخيرا أنه وقع فى غرامها و لم يعد يطيق بعدها عنه . لكن الأيام كانت قد علمتها أن تمنح بقدر ، وأن تتأكد مقدما من الحصول على المقابل المجزى ! لذلك احتفظت بحاجز رقيق بينهما ظن أنه حاجز العفة والشرف ، وصدق قصتها عن بسيم وأبيه .

استدارت جمالات لتنام على جانبها الأيمن فوجدت كافورا لا يزال فى تكوره وإن خفت شخيره قليلا . جرفها الحنين إليه فربتت على رأسه وقبلته فى جبينه وخده! كم تتوق نفسها إلى إنجاب ابن له حتى تروى ظمأ الأبوة داخله ؟! كم تتمنى أن يكذب الله ظن الطبيب الذى أكد لها أن العقم الذى أصابها كان نتيجة لعملية الإجهاض القديمة ؟! لم يعرف كافور شيئا عن زياراتها لأطباء أمراض النساء وأضرحة أولياء الله الصالحين حتى تنجب له ابنا ! ولولا اعتماده المطلق عليها مثل أمه تماما ، لكان قد طلقها منذ سنوات ! وها قد ماتت أمه و لم يعد له فى الدنيا سواها ! ومع ذلك ستواصل محاولاتها المستميتة حتى يحقق الله لها أمنيتها العزيزة !

لكن هل ستظل لعنة تلك الليلة الرهيبة تطاردها إلى الأبد ؟! هل يعقل أن تتسبب هذه الأسرة الملعونة فى إجهاضها ثم فى عقمها وتمر المسألة هكذا دون عقاب ؟! صحيح أنها تتتبع أنباء الأسرة من الأسطى شخصيا ؛ وعلمت كل شيء عن تدهور أحوالها التى أشبعتها كثيرا من الداخل ، ومع ذلك كانت تود الانتقام بنفسها لنفسها ! أوشك عبد الفضيل على الإفلاس أكثر من مرة ، لكن نوال بعد أن رحل أبوها وورثت عنه ثروته الضخمة ، تاركة لزوجها بسيم الإشراف على ورشة

الخراطة والميكانيكا ، كانت تهرع لتسديد ديونه لإحساسها أنهم أسرتها الحقيقية بعد رحيل أبيه . فقد أخذت زوجة أبيها نصيبها نقدا ثم تزوجت مرة أخرى ورحلت معه إلى أحد البلاد العربية ، فى حين ظل أخوها فى مصحته القديمة دون أى أمل فى علاجه من تخلفه العقلى . أما أمها فلم تحتمل صحتها الضعيفة فراق زوجها الذى كان كل شىء فى حياتها ، و لم ينجب الابن الذى يحمل اسمه ويواصل مشروعاته فرحلت فى أعقابه و لم يكن قد مر على وفاته أكثر من سنة .

ومع ذلك ظل عبد الفضيل على حيويته وخروجه من أزمات الإفلاس كالشعرة من العجين ، بدليل استمرار الست عدالات فى إقامة حفلات الزار ، وإن كان عددها قد قل كثيرا فى السنوات الأخيرة . إذاً .. فضربات جمالات القادمة يجب أن توجه إلى الدجاجة التى تبيض لهم ذهبا ! يجب أن تدخل نوال دوامة الزار ، لا أن تكون مجرد رفيقة لحماتها ! فإذا كانت الأسطى ريحانة قد شعرت فى السنوات الأخيرة بأن العائد المادى من حفلات الست عدالات لم يعد مجزيا ، وأنها تفكر فى الاعتذار عن إتمامها بحجة ظروفها الصحية ، فإنها بهذا لم تكن تعرف من أين تؤكل الكتف ؟! وإذا كان عبد الفضيل قد ظن أن العناية الإلهية قد أرسلت إليهم نوال لإنقاذ هم من الأزمات نتيجة لرضا الأسياد عنه ، فسوف تؤكد له جمالات أن الأسياد فى غاية الرضا عن ابنه أيضا ، لدرجة أنهم سيلتهمون كل ثروة زوجته حبا فيه ورضاء عنه !!

سعدت جمالات وهى تتقلب لتنام على ظهرها عندما تذكرت أن عدالات ونوال لم يأتيا ضمن المعزيات اللاتى أتين بالأمس . فهى تريد جلسة خاصة معهما ! فلابد أنهما لم يعلما بوفاتها ، لكن سرعان ما

يصلهما الخبر ويأتيان للتعزية ! انحسر الاسترخاء فى جسدها المنهك وهى تتساءل : هل سيتعرفان عليها وخاصة الست عدالات ؟! صحيح أن عشرين سنة كفيلة بتغيير وتبديل كل شىء !! لكن ربما ذكرهما اسمها بشكلها ؟! إذاً .. فليتغير الاسم أيضا ، فهى من الغد امرأة مختلفة تماما !! إنها ملكة الزار المتوجة !!

قدحت زناد فكرها بحثا عن اسم يليق بها . لقد اعتادت الكوديات والمنشدات اختيار أسماء الورود والأشجار والأزهار مثل ريحانة وبنفسج وكافور ، لكنها تريد أن تكون فريدة فى كل شىء ! تريد اسما يثير المهابة فى نفوس الناس الطيبين والمفترين على حد سواء ! استعرضت فى ذهنها كل الأسماء الممكنة : ياسمين ، تمرحنة ، فلة ، وردة ، زهرة ، قرنفلة ..... لكنها لم تسترح لأى منها ! فجأة سطع فى ظلام الغرفة الذى بدأ يتراجع أمام البشائر المبكرة للفجر ، اسم كالشهاب ، أجلسها فى فراشها لفرط حماسها : ألطاف !! اسم لابد أن يحل باللطف على عقول كل المشتركين فى حفلاتها القادمة !!

استرخت فى فراشها مرة أخرى . ما أعجب حياتها ؟! خاضت مصر ثلاث حروب ، كانت كل منها نقطة تحول فى حياتها ! فى أعقاب عدوان إنجلترا وفرنسا واسرائيل طردت من بيت عبد الفضيل فى تلك الليلة الرهيبة كى تبدأ حياتها الموفقة مع الأسطى ريحانة . وفى أعقاب النكسة الشهيرة التى احتل فيها اليهود ضفة قناة السويس أصيبت ريحانة بأول أزمة قلبية لها مما دفعها إلى الإسراع بتزويجها من ابنها كافور خوفا من أن تتركه وحيدا ، وهو الذى اعتمد عليها كلية فى حياته المدللة المرفهة . وفى أعقاب حرب أكتوبر رحلت الأسطى ريحانة فى الوقت الذى ارتفعت فيه

أسعار حفلات الزار أربعة أو خمسة أضعاف مع تطبيق سياسة الانفتاح ، وجريان الأموال فى أيدى المؤمنين فعلا بالزار ، والذين لم يكن فى قدرتهم مجرد حضور الحفلات وليس إقامتها . كذلك أصبحت ألطاف أقوى وأغنى وأشد سطوة لتوجه ضربتها التى ظلت تحلم بها حوالى عشرين عاما ! ظنت أن الدنيا دانت لها أخيرا برغم حكمة ريحانة المفضلة بأن دوام الحال من المحال !

لكن عليها أن تحذر بنفسج ! فكرت فى التخلص منها لكنها لن تجد منشدة فى كفاءتها وجمال صوتها ! صحيح أنها تحقد عليها حقداً أسود منذ أول لحظة دخلت فيها هذا البيت ! لكن ماذا يمكنها أن تفعل ؟! لقد أصبحت ألطاف الآمرة الناهية فى كل من حولها ؟! وعلى بنفسج أن تتعامل مع هذا الواقع الجديد وإلا وجدت نفسها فى الشارع ! ولن تمنحها أية كودية أخرى الأجور والهبات والمنح التى نالتها على يدى ريحانة والتى ستضاعفها ألطاف حتى تأمن شرها ! بنفسج ليست مشكلة حقيقية وإن كان الاحتياط واجبا !

أخيرا غفت عيناها مع مداعبة أنامل الفجر لخصاص النافذة المطلة على النيل الذى شقه صندل أطلق صفيرا مزق السكون وردده الأفق ، لكن سرعان ما استيقظت ألطاف على هزة خفيفة فى كتفها لتجد كافورا ينظر إليها مستجيرا بها من الفراغ الذى تركته أمه والذى يكاد أن يقتله !

(٢)

ـــ إلى أين فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ؟!

قالها بسيم وهو يفرك عينيه فى فراشه عندما رأى زوجته نوال تكاد تنتهى من زينتها أمام المرآة التى عكست وجهها الطويل الشاحب وبعض خصلات من شعرها البنى الخفيف :

ـــ الساعة تجاوزت التاسعة !

جلس فى فراشه فبرز كرشه المنتفخ من فتحات البيجامة البيضاء :

ـــ اليوم أحد والورشة مغلقة ولا داعى للاستيقاظ المبكر !

كانت نوال على وشك أن تضع أحمر شفاه لكنها ـــ كمن تذكر شيئا ـــ أعادته مرة أخرى دون أن تستدير لترد عليه :

ـــ اتصلت بى طنط عدالات فى ساعة متأخرة مساء أمس .. وأخبرتنى أنها قرأت فى صفحة الوفيات وفاة الكودية ريحانة .. ولولا أن الوقت كان متأخرا لكنا قمنا بواجب العزاء أمس !

مسح بيده صلعته الصفراء المستديرة اللامعة ، و لم تخف عيناه حنقا كان مكبوتا :

ـــ ألف رحمة عليها !! الحمد لله أنها رحلت قبل أن تأتى على البقية الباقية مما نملك !

استدارت نوال بحركة سوقية فظهرت ساقاها النحيلتان :

ـــ مالى وأنا حرة فيه ! إنك لا تصرف مليما واحدا من جيبك !

استدار بدوره وأنزل ساقيه المترهلتين على حافة الفراش :

— قلبى عليك !! الحق علىّ !!

استمتعت بنبرات الخنوع فى كلماته ، وترحمت على حكمة أبيها الذى كتب معظم ثروته باسمها فجعلها سيدة نفسها ومن حولها :

— قلت لك ألف مرة أن تتحاشى غضبهم .. فلم يخلق بشر يستطيع أن يتحداهم أو حتى يذكرهم بسخرية إلا وأذاقوه الويل والثبور !

ملّس على ذقنه مفكرا فى النهوض ليحلقها فى حين لم تخل كلماته من نبرة خوف دفين :

— لم أفعل شيئا من هذا القبيل .. بل إننى أريد أن أتحاشاهم تماما بحيث نقطع كل صلاتنا بهم !

وضعت قدميها فى حذاء لامع فاخر :

— من يسمعك يظن أن أسرتك أتت من باريس لتستوطن فى مصر ؟! وأنها لم تعرف شيئا عن الزار بطول تاريخها الحافل ؟!

فكر فى النهوض وترك الغرفة ومع ذلك واصل المقاومة المستميتة :

— ومن قال لك إننى كنت راضيا عن أفعال أمى وتأييد أبى لها ؟!

نهضت واقفة وهى تضغط على أسنانها :

— لقد حازا رضاهم ولذلك أرسلوا إليهم من أنقذهما من أزماتهما .. وها هى أمك تواصل التقرب منهم !

فهم بسيم ما تقصده تماما . إنها النغمة التى تذله بها كلما فتح معها هذا الموضوع الكئيب :

— كان من الممكن أن يحافظ أبى على ثروته الضخمة التى كونها من تجارة الخردة والخيش .. لكن أمى كانت بالمرصاد لكل مليم ربحه .. و لم

يحاول هو بدوره أن يوقفها عند حدها لخوفه هو الآخر منهم !

وضعت ذراعها فى جانبها الأيمن مع هزة فى ساقها اليمنى :

ــ وتريد أنت أن توقفنى عند حدى ؟!

نهض فيما يشبه الاعتذار :

ــ لم أقصد هذا على الإطلاق ! وإنما قصدى أن أمى إذا أرادت أن تقيم هذه الحفلات فليكن هذا على نفقتها هى .. حتى تشعر الأسياد أنها تضحى من أجلهم !

سعد لهذه الدبلوماسية الطارئة على أسلوبه عندما وجد زوجته تبحث حائرة عن إجابة مفحمة تناسب لسانها السليط :

ــ إذا كان اشتراكى فى حفلات أمك يضايقك إلى هذا الحد .. فسأقيم حفلاتى بنفسى وفى شقتى !

هبطت الإجابة على رأسه كالصاعقة لتبعثر مخه فى كل اتجاه . ندم أشد الندم على هذه المناظرة التى أوشكت أن تفتح عليه فوهة الجحيم ، لدرجة أنه تذكر غضب الأسياد وتساءل فى صمت عما إذا كان ما يجرى فى تلك اللحظة نتيجة لتحديه لهم . تحرك إلى باب الغرفة وهى تتابعه بعينيها الضيقتين اللامعتين . أراد تغيير مسار الحوار :

ــ وما دامت الكودية قد ماتت .. فهل تعرفان أحدا فى أسرتها يمكن أن يتلقى التعازى ؟!

ــ لابد أن تكون المنشدة بنفسج هناك .. كذلك ابنها وزوجته !!

ــ من المحرج أن تقدما العزاء لهما دون أن يعرفا من أنتم !!

ــ قابلنا ابنها أكثر من مرة .. أما زوجته فيبدو أنها كانت مشغولة فى حفلات أخرى !

أسند ظهره إلى باب الغرفة فى استسلام حزين :

— وهل هى كودية هى الأخرى ؟!

— يقولون إنها أكثر مهارة من الأسطى ريحانة نفسها .. وإن الأسياد لا يرفضون لها طلبا .. كما أنها فى عز الشباب والحيوية !

— وكيف عرفت هذا دون أن تريها ؟!

— من صديقات أقامت لهن حفلات فى منتهى النشوة والبهجة !

التفت بسيم إلى خارج الباب فوجد ابنه حازم مرتديا قميصا خفيفا أبيض على بنطلون جينز أزرق ، سأله خارجا من الغرفة وهاربا من زوجته :

— إلى أين أنت أيضا ؟!

توقف حازم خلف أحد مقاعد الصالة وقد بدت الحيرة والقلق على وجهه الذى يحاكى ملامح أبيه لكن فى نحافة واضحة :

— أبداً .. سأذهب إلى المكتبة للاطلاع على بعض المراجع !

— الامتحان على الأبواب .. والمفروض أن تلازم البيت لتراجع كل محاضراتك !

أشاح حازم بوجهه بعيدا وهو يتحسس شاربه الدقيق الخفيف :

— اننى لن ألعب الكرة فى المكتبة !!

— منذ التحاقك بقسم علم النفس هذا .. وأنت لم تتعلم سوى سلاطة اللسان ؟!

ضغط حازم على حقيبته الصغيرة :

— قول الحق لا يغضب أحدا !!

— كان الأجدر بك أن تلتحق بكلية التجارة حتى تشارك أباك فى

مشروعاته ! لا أعرف ما قيمة علم النفس هذا ؟! إنه لا يختلف عن الزار فى كثير أو قليل .

كان على وشك أن يستمر فى سيل الكلمات المتدفقة ، لكن زوجته برزت من الباب فى كامل لباسها :

ــ مشروعات من ياسى بسيم ؟!

استدار باحثا عن إجابة تحفظ له ماء وجهه أمام ابنه :

ــ أقصد أنه لم ينضم إلى قسم علم النفس لإيمانه بهذا العلم وميله إليه ، ولكن لأنها رغبة جارتنا العزيزة التى يتبعها كظلها .. ولا أعرف إلى أين ستصل به ؟!

لاحظت نوال ضيق ابنها وسخرية زوجها بجارتهم دون داع :

ــ لم أر أحدا مثلك فى نقمته على كل الناس !

ما هذا الصباح العكر ! هذه المرة تاهت منه الإجابة لكن ابنه أسعفه بتدخله :

ــ لولا الدكتورة ثريا لكنت انتحرت من زمن !

سعد بسيم بالموضوع الجديد :

ــ إن كلمة الانتحار فى فمك مثل اللبانة .. ثم إنها ليست دكتورة .. فهى معيدة تخرجت منذ سنتين فقط !

ــ إنها فى نظرى أكثر من دكتورة ! وهى الدافع وراء تفوقى بعد أن فقدت الأمل فى كل شىء !!

تقدمت نوال من باب الشقة قائلة لبسيم دون أن تنظر إليه :

ــ إنك خير من يجلب الحرج لنفسه ! عن إذنك !

فتحت الباب وخرجت . فى أعقابها انطلق حازم دون أن يلتفت هو

الآخر لأبيه :

— عن إذنك يا بابا !

لم يرد بسيم والباب يغلق ليظل بمفرده فى الشقة . شىء مقلق داخله تساءل : يستأذنان كما لو كانا فى انتظار إذنى ؟!

على السلم طلبت نوال من ابنها أن تقوم بتوصيله إلى الكلية لكنه اعتذر بأنه سيذهب مع الدكتورة . لم يبد على وجهها أى تعبير أو انفعال بل سرعان ما استقلت المصعد الذى اختفت داخله . تحول الإحباط داخله إلى دفقات من الانتعاش وهو يتوجه إلى الباب المقابل ويضغط على زر الجرس . فتح الباب كهل تجاوز الخمسين ، طويل القامة ، رشيق القوام ، يكلل الشعر الأبيض رأسه فيزيد وجهه مهابة وجمالا وجلالا :

— أهلا .. سيد حازم .. تفضل .. ثريا جاهزة للذهاب إلى الكلية !!

لم يستطع حازم أن يتخلص من خجله وحرجه فتلعثم :

— سأنتظرها هنا !

جذبه من يده فى حيوية ابن الثلاثين :

— ادخل .. كفاك خجلا .. أليست ثريا أختك الكبيرة ؟!

— طبعا .. طبعا يا دكتور !

أغلق الرجل الباب وتركه إلى الداخل . تأمل حازم وجهه فى المرآة . إنها ليست أختى الكبيرة ! إنها شىء أكبر من ذلك بكثير ! إنها النور الذى يضىء طريقى ! كلماتها . ابتساماتها . لمحاتها العذبة ! عيناها الواسعتان الخضراوان المشعتان بوميض الفجر عند التقاء السماء بالبحر ! شعرها المتماوج بخصلات الذهب ! أفكارها التى ترفعه من قاع اليأس إلى قمة

الأمل ! أما جسدها الجميل فلم يدنسه أبدا بأفكاره ! فهى السمو يسير على قدمين !

— لم أعرف أنك نرجسى إلى هذا الحد ؟!

أعقبت السؤال بضحكة رقيقة عذبة وهو يستدير محرجا :

— أهلا دكتورة .. لم أكن أتأمل نفسى فى المرآة !! كنت فى انتظار حضرتك !

نظرت إلى ساعتها الذهبية الصغيرة وعطرها يحاصره :

— هيا بنا !!

فتحت الباب وسبقته إلى الخارج فى فستانها الفستقى الخفيف ، وحقيبتها الخضراء الصغيرة ، وشعرها القصير الذى يحتضن أذنيها. سار فى أعقابها وأغلق الباب . فى المصعد وقف يتعبد فى محرابها .

— كيف أحوالك يا حازم ؟!

خرج صوته هامسا رقيقا :

— الحمد لله .. لا جديد .. بابا لا يزال يبحث لنفسه عن دور حقيقى .. وماما تعتبر الزار قضية عمرها !

توقف المصعد فخرجا سويا عبر مدخل العمارة صوب الجراج حيث ركبت سيارتها البيضاء الصغيرة وحازم إلى جوارها . انطلقت السيارة فى شارع القصر العينى ثم انحرفت يمينا صوب الكوبرى .

— لكن أمك لا تقيم حفلات فى بيتها ! إنها ترافق جدتك فقط !

— سمعتها صباح اليوم تقول لبابا إنها ستقيم حفلاتها بنفسها وفى شقتها .. وهذا يعنى مصيبة جديدة .. فلا أحد يستطيع أن يقف فى طريقها .. وسيصبح البيت جحيما !!

ـــ لو كانت أمك قد أكملت تعليمها لما تصرفت هكذا .. فهى تشعر أنها بجروتها التى ورثتها عن أبيها لابد أن تكون الآمرة الناهية .. خاصة بالنسبة لأبيك الذى يفخر ببكالوريوس التجارة فى حين أنه يعمل عندها ! `

ـــ ومع ذلك اعتاد أن يترك قياده لأبيه ثم لزوجته بعد ذلك !

ـــ من يؤثر الطريق السهل فى شبابه لابد أن يجتاز الصعب فى كهولته ! إنها كلمة بابا الأثيرة !

نظر حازم إليها فى وجد وحيرة تقديس :

ـــ لولاك يا دكتورة لكنت ضعت بينهما !

كانت نظرات ثريا ممتدة أمامها فوق كوبرى الجامعة :

ـــ لا تقل مثل هذا الكلام يا حازم .. فأنت شاب قوى وذكى !

ابتسم حازم فى خفر كالعذارى :

ـــ دائما تشجعيننى !

بدت قبة الجامعة شاهقة والسيارة تسير بين حديقتى الأورمان والحيوان ، فى حين دقت الساعة العريقة العاشرة فرددت الحديقتان صدى الدقات الجليلة . عبرت السيارة البوابة الحديدية الضخمة :

ـــ إذا قررت أمك إقامة حفلات الزار فى شقتها .. فأرجو أن تخبرنى بذلك فورا !

ذهل حازم والعربة تتخذ موقفها أمام مدخل كلية الآداب :

ـــ هل أستطيع أن أعرف السبب ؟!

ابتسمت ثريا ابتسامتها التى تضىء لياليه الطويلة المظلمة :

ـــ سأخبرك فيما بعد !

خرجت من سيارتها فتبعها صاعدا إلى جوارها فوق الدرجات الرخامية الفسيحة وهو يكاد يطير فخرا وفرحا وسط نظرات الطلبة والطالبات الزاخرة بالإعجاب والابتسام والعذوبة وربما الغيرة !

(٣)

كانت شمس مايو تفترش النيل والأشجار التى جددت أوراقها الضاربة فى الخضرة عندما اخترقت السيارة الفاخرة طريق كورنيش المنيل صوب حى الروضة . جلست نوال أمام عجلة القيادة بفستانها الأسود الذى زاد من شحوب وجهها ، فى حين سحبت نفسا من سيجارة مرتعشة بعض الشىء بين أصابعها . جلست إلى جوارها الست عدالات التى حمل وجهها تجاعيد جعلتها تبدو أكبر من سنها ، برغم صبغة الشعر ذات اللون البنى الداكن التى احتلت رأسها تماما . كان فستانها الأسود أقل أناقة وبهاء من فستان زوجة ابنها ، ومع ذلك عكس وجهها بقايا عز غابر . تخلصت نوال من بقايا دخان فى أنفها :

— يقولون إن الكودية الجديدة لا تقل فى سرها الباتع إن لم تزد على الأسطى ريحانة نفسها ؟!

شردت عدالات عبر النيل الذى اتسع مع توغل السيارة فى كورنيش الروضة :

— أيام ريحانة ولياليها لا تنسى ! كانت قادرة على شفاء الخمول والصداع الدائم والروماتيزم والحساسية والعقم وأمراض النساء والعيون والأمراض الباطنية والعقلية .. أنا نفسى عالجتنى من آلام المفاصل وخصوصا الأصابع أكثر من مرة !

— أما أنا فمجرد اشتراكى فى حفلاتها جلب علىّ رضا الأسياد و لم تقل أرباح الورشة .. وإن كان التخفيض قد جرى مرتين على إيجار

العمارة !

ــ المهم رضا الأسياد .. جعل الله كلامنا خفيفا عليهم !

ــ آمين .. يارب !

ــ وأدام عليك الخير والبركة .. فلولاك لما استمرت معنا الأسطى ريحانة فى السنوات الأخيرة .. خصوصا بعد أن تضاعفت أسعار الحفلات وتكاليفها أربع أو خمس مرات بعد حرب أكتوبر !

بلغت السيارة الرمادية الفاخرة الڤيلا الصفراء العريقة حيث توقفت أمامها :

ــ لا تقولى مثل هذا الكلام .. فأنت ماما بعد رحيل أمى .. وأنتم أسرتى الوحيدة فى هذه الدنيا !

ربتت عدالات فى حنان دافق على كتفها . خرجت نوال من السيارة وألقت عقب سيجارتها مشتعلا على الرصيف . تبعتها عدالات عبر البوابة الحديدية الصغيرة وصعودا على السلم الرخامى . ضغطت نوال على زر الجرس فى حين كانت بوادر دموع تترقرق فى عينى عدالات :

ــ منظر البيت لا يحتمل بدونها !

ــ لا راد لقضاء الله !

ــ ونعم بالله !

فتحت بنفسج الباب فاحتضنتها عدالات ثم نوال :

ــ البقية فى حياتك .. البقية فى حياتك !

ــ وحياتكم الباقية .. اتفضلوا .. الأسطى جمالات فى انتظاركم !

قالتها بنفسج بصوت منخفض لكن ألطاف التى كانت قابعة فى نهاية القاعة سمعت الاسم . سارت بنفسج وفى أعقابها عدالات ونوال اللتين

سلمتا عليها عندما نهضت لاستقبالهما . وبعد تبادل التعازى والجلوس ، شرعت بنفسج فى ترك القاعة لكن ألطاف أوقـفتها فى حين كانت عدالات تدقق فى ملامحها :

ــ بنفسج .. من هى الأسطى جمالات التى ذكرت اسمها لهما ! هل هناك أسطى غيرى فى هذا البيت !

أخذت بنفسج على غرة فاهتزت فى وقفتها :

ــ فلتة لسان يا أسطى .. كنت أقصد حضرتك .. الأسطى ألطاف !! آسفة !!

ــ حصل خير .. تفضلى !

أسرعت بنفسج بالاختفاء . ركزت ألطاف نظراتها الحادة الخارقة على عدالات التى تحاشتها بالنظر إلى حذائها الأسود . كانت ألطاف قد أحالت حاجبيها إلى خطين رفيعين كما لو كانا قد رسما بقلم الرصاص ، فى حين تركت شعرها الأسود الطويل الناعم ينهمر بخصلاته على عنقها وكتفيها حتى تغير من ملامحها بقدر الإمكان ، وهو التغير الذى لم يخف على عينى بنفسج الفاحصتين . رفعت عدالات عينيها فى تأثر شديد :

ــ رحمها الله .. تركت فراغا كبيرا فى قلوب كل عشاقها !

انتقل التأثر إلى نبرات ألطاف وهى تتفحص نوال على يسارها :

ــ كانت صاحبة فضل على الجميع !

لم تخل نظرات نوال لألطاف من حسد لجمالها وسحرها :

ــ البركة فيك .. فأنت خير من يخلفها !

ــ حفظك الله .. ما أنا إلا تلميذه مجتهدة لها ! رحمها الله .. راحت ضحية زبائنها .. أصرت على القيام بكل شىء فى آخر حفل برغم ضعفها

وتجاوزها سن السبعين .. كنا فى غاية الخوف عليها .. لكنها كانت قد منحت كلمتها لصاحبة الحفل !!

انجرفت نوال مع انفعالات الحوار :

— إنها مشيئة الله !

عقبت عدالات وقد عادت إلى تفحص وجه ألطاف :

— ونعم بالله !

جاءت بنفسج حاملة صينية عليها كوبان من الماء المثلج وفنجانان من القهوة السادة . قدمتها لعدالات ثم لنوال وهى تتبادل نظرات غير مريحة مع ألطاف . عادت بنفسج أدراجها فى حين علقت ألطاف :

— وطعنت بنفسج فى السن هى الأخرى ؟!

لاحظت عدالات أن ألطاف تحاصرها بعينيها النفاذتين فهربت منها :

— الزمن لا يترك أحدا فى حاله !

تساءلت نوال فيما يشبه الحرج وهى ترشف قهوتها :

— يبدو أن الحفلات ستتأخر طويلا قبل أن تعود مرة أخرى إلى سابق عهدها ؟!

ارتاحت ألطاف لسؤال نوال :

— ليس قبل الأربعين بأية حال من الأحوال . كما أننى سأحاول أن أقلل نشاطى بقدر الإمكان .. فالحفلات تستهلك صحة الكودية .. يكفيها قبل بدء العمل أن تتلبس بأعظم الأرواح التى عليها حتى تستطيع أن تسيطر على من هم دونها ممن يتلبسون بالمرضى !

تساءلت عدالات بدورها وقد أتت على نصف الفنجان :

— هل يعنى هذا أنك لن تقبلى كل زبائن الأسطى ريحانة ؟!

— بعد حرب أكتوبر والانفتاح وجريان الأموال فى أيدى من لم يحلموا بها .. أصبح كل من هب ودب الآن يريد إقامة حفلات فى بيته .. ونحن لم نتعود التعامل إلا مع زوجات البكوات وبنات البشوات .. ولذلك لن أختار إلا بنات الأصل العريق .. القادرات على دفع التكاليف الجديدة .. فطلبات الأسياد فى ازدياد .. ونحن تحت أمرهم !!

ثم جذبت عنق ردائها الأسود الحريرى وبصقت فيه :

— دستور يا أسيادى .. الرضا والسماح يا أسيادى !

فرددت عدالات ونوال نفس الكلمات بخشوع واضح ، ثم استطردت نوال :

— ونحن أيضا تحت أمرهم فى كل ما يطلبون !!

ظهرت بوادر ابتسامة متسائلة على نظرات ألطاف لنوال :

— لم تذكر لى الأسطى ريحانة — الله يرحمها — أنها أقامت لك حفلات !

أجابت فى حرج وهى تعيد فنجان القهوة الفارغ إلى الصينية :

— شاركت فقط فى الحفلات التى أقامتها للست عدالات !

علا صوت ألطاف فى حسم مكبوت :

— إذاً .. نقسم البلد إلى نصفين .. حتى لا يغضب أحد .. حفل عندك .. وحفل عندها !!

لم تستطع نوال أن تكتم تألق الفرحة فى عينيها . فهذا هو ما كانت تتمناه منذ زمن طويل .. و لم تتمكن من مفاتحة الأسطى ريحانة أو الست عدالات فيه برغم أن معظم التكاليف فى السنوات الأخيرة كانت عليها .

ما أروع ألطاف هذه !! إنها تعزف أجمل الألحان داخلها !! لكن هذه الألحان تحولت إلى خطوط لحرج واضح على وجه عدالات التى قطعت الصمت دون النظر إلى إحداهما :

— أنا ونوال واحد .. إنها أعز علىّ من بناتى !

بادلتها نوال جيشانها العاطفى :

— الله وحده يعلم كم أحبك وأعزك !

استرخت ألطاف فى مقعدها الوثير :

— أدام الله عليكما نعمة الحب .. ومتعكما برضاهم !

فجأة نهضت عدالات قائلة بكلمات لا تخلو من قلق وضيق :

— لن نثقل عليك أكثر من هذا .. فلابد أن أمامك طابورا طويلا من المعزيات .. ونطلب من الله ألا يريك مكروها أبداً !

اضطرت نوال إلى الوقوف فى حين نهضت ألطاف فى وقار ومهابة :

— إذا كانت الأسطى ريحانة قد رحلت عنا بجسدها .. فروحها لا تزال تعيش بيننا .. ويجب ألا نحزن عليها مثل الناس العاديين .. فقد ذهبت إلى الذين أحبتهم وأحبوها !

ومضت عيناها ببريق نافذ ثم تحركت تجاه باب القاعة وفى معيتها عدالات على اليسار ، ونوال على اليمين . عند الباب التفتت إلى نوال :

— اتصلى بى بعد الأربعين حتى أحجز لك ميعادا قبل الزحام !

مدت نوال يدها بالسلام فى انحناءة سجلتها عينا عدالات التى أعقبتها بانحناءة أشد حتى لا تستأثر نوال برضا الأسياد . فتحت ألطاف الباب وقد كبتت ابتسامة ساخرة فى أعماقها عندما تذكرت الليلة التى لا تنسى ، وتمنت أن تكون هذه الانحناءة من عبد الفضيل وابنه بسيم !

خرجا إلى العربة الفاخرة التى انطلقت بها نوال بحذاء النيل وتحت الشمس الساخنة . لاحظت نوال صمت عدالات وشرودها :

— أرجو ألا يكون اقتراح الأسطى ألطاف قد ضايقك !! فلم أتعود على صمتك !

استدركت عدالات خارجة من بين طيات شرودها وقلقها :

— أبداً .. فقد ارتحت لهذا الاقتراح لأن سن عبد الفضيل الآن لم تعد تسمح له باحتمال مجهود الزار ودقات دفوفه .. آخر حفلة لنا ترك فيها البيت إلى بيت أخيه كما تعلمين !!

— ستكونين عروس الزار أيضا عندى !

— لن آخذ زمنى وزمن غيرى !

توقفت السيارة عند إشارة المرور فأشعلت نوال سيجارة :

— أنت الخير والبركة !

انطلقت السيارة مع كلمات عدالات الحائرة :

— ما يحيرنى .. أمر قد لا يخطر ببالك .. فعندما نطقت بنفسج باسم جمالات عند وصولنا .. تذكرت بنت فقيرة من أقارب عبد الفضيل جاءت للخدمة عندنا منذ زمن بعيد .. وكانت تحمل الاسم نفسه !

أطلقت نوال نفسا صافيا من أنفها :

— جمالات اسم شائع .. كما أن الأسطى الجديدة تدعى ألطاف !

— كنت قد سمعت من الصديقات اللاتى أقامت لهن حفلات أن اسمها جمالات فعلا !!

— الأسماء لا تهم فى قليل أو كثير !

— هذا صحيح ! لكن ما العمل إذا قلت لك أن ملامحها تذكرنى

بتلك الفتاة الصغيرة التى عملت فى خدمتنا !

تأكدت نوال من أن أوهام الأمجاد الغابرة قد أثارت زوبعة فى عقل الست عدالات :

— أنا شخصيا لا أتذكر ملامح الأشخاص الذين قابلتهم بالأمس !

شردت عدالات عبر النافذة .

— يجوز !! يخلق من الشبه أربعين !

وقفت السيارة الفارهة أمام العمارة التى أصبح لونها حائلا بحيث أصبح من الصعب تمييزه فى حين تحطمت بعض أجزاء سور الكورنيش ، وفقد النيل سمرته فى سيره الوئيد بين ضفتين علاهما صدأ أخضر قاتم !

(٤)

— إلى متى سترفضين كل شاب يتقدم لطلب يدك ؟!

سألت مدام كوثر السؤال دون أن ترفع عينيها عن الجريدة الإنجليزية التى كانت تقرأها وسط الأطفال الذين يجرون حول المائدة فى حديقة النادى وضحكاتهم تثير البهجة مع تمايل الزهور وسط هبات بعض النسمات الرقيقة !

وضعت ثريا الكتاب الذى كان فى يدها على المائدة ونظرت إلى أمها بابتسامة عذبة :

— تتكلمين مثل الأمهات اللاتى لا هم لهن سوى تزويج بناتهن فى بيت العدل !!

— تعلمين أننى آخر أم فى مصر تفكر مثل هذا التفكير ! لكن رفضك للطابور الطويل الذى تقدم لطلب يدك كان بحجة انشغالك بدراستك .. وأنا لا أجد تعارضا بين الدراسة والزواج .. خاصة وأنك تخرجت منذ سنتين !

لمحت ثريا عاشقين صغيرين يسيران الهوينى تحت ظلال بعض الأشجار البعيدة :

— لن أتزوج إلا ممن يطلبنى لعقلى وليس لمجرد منظرى !! فأنا لا أقبل أن أكون مجرد قطة أليفة فى بيت زوجى !

ومضت عيناها الخضروان اللتان ورثتهما ابنتها عنها وكذلك خصلات الذهب المتناثر مع دفقات الهواء . ابتسمت عندما تذكرت أنها كثيرا ما قالت لها إنها تزوجت أباها بناء على اللقاء الفكرى والتوافق العقلى

بينهما ، ثم جاءت المظاهر والشكليات فى المقام الثانى أو الثالث ، ومع ذلك سألتها متخابثة :

— ألم يخرج واحد من هذا الطابور يعبر عن إعجابه بعقلك ؟!

— كل واحد منهم كان معجبا بذكائه وجاذبيته وعبقريته التى لا يمل الحديث عنها .. ومن حين لآخر ينوه بانبهاره بجمالى وسحرى .. ولذلك لم يحدث أى لقاء فكرى أو توافق عقلى .. فالكتاب يقرأ من عنوانه !!

استرخت الأم مستمتعة بنضج ابنتها . كانت ساقاها الرشيقتان فى بنطلون أسود ضيق فوضعت ساقا على ساق :

— لكن عنوان الكتاب الذى معك لا يشجع على القراءة ؟!

أشارت ثريا إلى كتابها على المائدة وقبل أن تفتح فمها مستفهمة استأنفت أمها الحديث :

— لا أقصد هذا الكتاب !

ابتسمت ثريا دون أن تضحك :

— تقصدين حازماً ؟! إنه ولد طيب ونقى للغاية ! ويشعر معى بالطمأنينة والثقة بالنفس والأمومة التى يفتقدها فى أمه !!

— إنها محدثة نعمة جاهلة ورثت الكثير عن أبيها !! ولابد أن ثروتها قد تضاعفت مع الانفتاح الاقتصادى الذى فتح أبوابه لكل الطفيليين والانتهازيين وصائدى الثروات فى غفلة من الزمان !

— لكن جهلها فتح لها بالوعة الزار التى تستنزف أموالها أولا بأول !

ابتسمت مدام كوثر فى سخرية :

— رزق الهبل على المجانين !

— وعلمت من حازم أنها قررت نقل حفلات الزار من شقة حماتها إلى شقتها !

شهقت الأم وهى تضع نظارتها الشمسية على عينيها :

— غير معقول !! هل أتى اليوم الذى تقام فيه حفلة زار فى الشقة المقابلة لنا .. فلا نستطيع الراحة أو النوم مع دقات الدفوف المسعورة والأناشيد المتشنجة ؟!

— الشقة شقتهم وهم أحرار فيها .. كما أنهم أصحاب العمارة كلها !

— سأبلغ الشرطة !

— القانون لا يمنع إقامة حفلات الزار !

— والعمل ؟!

— أبداً .. أنا شخصيا سعيدة بهذا التطور !

استدارت الأم لتواجهها وقد اتكأت بمرفقيها على المائدة الصغيرة ومفرشها ذى النقوش الفرعونية :

— أتمزحين ؟!

— إطلاقا .. فقد ظللت سنة كاملة أبحث عن موضوع لرسالتى للماچستير فلم أجد موضوعا أكثر جدة وإثارة وعمقا من التفسير النفسى لظاهرة الزار فى مصر !

— لأبيك عيادة كبيرة للأمراض النفسية والعصبية .. ومليئة بالحالات المتعددة الجاهزة للدراسة .. وتذهبين للجرى وراء هذا الدجل !!

— معظمها حالات تقليدية .. وشبيهة بتلك التى يصاب بها المرضى فى بلاد أخرى تعانى من ضغوط العصر المتزايدة !! أما بالنسبة للدجل ..

فإذا لم يسع علم النفس جادا لكشفه وتعريته والقضاء عليه فلا لزوم له !

ــ إياك أن تقولى إنك ستشاركين فى حفلات هذه المعتوهة على سبيل الدراسة والتحليل ؟!

ازدادت خضرة عينيها لمعانا وبريقا :

ــ قضيت الشهرين الماضيين فى البحث عن مراجع للدراسة .. فاكتشفت أن الممارسة العملية هى مرجعى الأساسى !

خلعت الأم نظارتها الشمسية وقد بدت بوادر الإثارة فى عينيها اللامعتين :

ــ لكن لابد أن تكون لديك من المعلومات ما يساعدك على حضور هذه الحفلات حتى لا يشك أحد فى الهدف من وجودك !

ــ من المراجع القليلة بل والنادرة التى اطلعت عليها عرفت أن كلمة زار هى كلمة أمهرية وتعنى عند الأحباش شر ينزل بالإنسان .. وهناك تفسير آخر يقول إن كلمة الزار من الزيارة التى يقوم بها الجن للآدميين .. لكن اتصال العرب بالأحباش أوجد أفكارا مشتركة بينهم كالجن والرقية والتطير والزار الذى لم يظهر فى مصر إلا فى القرن التاسع عشر بعد الفتح المصرى للسودان حين هاجر بعض الأهالى من السودان إلى مصر ونقلوا معهم الظاهرة بكل ما تحويه من طقوس وألفاظ غريبة على اللغة العربية !

بدا الاهتمام المتزايد والمتصاعد فى عينى الأم وحركاتها :

ــ إنك تأخذين الموضوع بمنتهى الجدية .. من يسمعك يقل إنك تؤهلين نفسك لتصبحى كودية ؟!

أنهت الأم تساؤلها بضحكة مرحة شاركتها فيها ثريا :

— ولم لا ؟! الكودية تربح أضعاف أضعاف دخل أستاذ الجامعة !!

— كثيرا ما سمعت عن الكودية .. ومع ذلك لم أعرف معنى للفظ !!

وضعت ثريا ساقا على ساق ونفضت ذيل فستانها الوردى عليهما :

— واضح أن هذا اللفظ من أصل غير عربى .. ويرجح البعض أنه اشتق من كلمة « كادو » وهى الاسم الذى يطلق على أحد الأسياد الخطرين أو سلطان الجن الأحمر !

انزلق مرفقا الأم إلى ما يقرب من منتصف المائدة :

— وهل فى استطاعة أية امرأة أن تحترف هذه المهنة الغريبة ؟!

— الأسياد هم الذين يحكمون عليها بأن تقوم بهذا العمل !!

— كيف ؟!

— يتلبسونها لفترة طويلة بحيث لا يمكن أن تشفى إلا على يد كودية قديمة تعرف من عليها من أسياد ينطقون من خلالها بمطالب معينة .. وبعد أن تحققها لهم جميعا تفوز برضائهم .. فإذا طلبوا منها بعد ذلك أن تعقد العقد وتتحزم .. فإنهم بهذا يحكمون عليها بأن تكون كودية .. بمعنى أن الوفاء بكل مطالبهم يلزمها بعد ذلك بأن تحضر جنيها ذهبيا من عملة قديمة ثم تذبح دجاجة سوداء وتدهن جسدها بدمها وكذلك الجنيه الذى يبخر ويربط فى قماش أبيض على شكل حزام يبخر أيضا ثم تلبسه وتبخر فى حفل زار كبير . وعليها أن تلبس هذا الحزام دائما وإلا حل بها أذى الأسياد !! وغالبا ما تكون الكودية ابنة كودية أو مساعدة لها !! وبذلك تكون بنت بخور منذ صغرها !!

تخلت مدام كوثر عن استرخائها تماما :

— إنه عالم غامض سمعت عنه كثيرا . لكننى لم أختبره أبداً !!

— وقد آن الأوان لاختباره !

— وهل تمارس الكودية طقوسا مقنعة على الأقل ظاهريا .. أم أن الجهل المتفشى بين الحاضرات يجعل هذا الدجل مقبولا ؟!

أغلقت ثريا الكتاب الذى كان مفتوحا أمامها :

— الكودية عندما تخاطب المريضة فهى لا تتكلم بنفسها وإنما الأسياد هى التى تتكلم.. وهى أحيانا تتكلم العربية وأحيانا أخرى تتكلم بلغة الزار.. وهى لغة لا يفهمها أحد سواها ثم تترجمها بعد كثير من الرجاء والإلحاح!

شردت الأم ببصرها عبر الحديقة المعبقة بعطر الزهور :

— كيف يستمر هذا الدجل ونحن فى الربع الأخير من القرن العشرين ؟! لابد من قانون يمنع مثل هذه الظواهر المرضية ؟!

— القوانين لا تستأصل مثل هذه الظواهر من جذورها .. فبرغم قسوة القوانين المطبقة على تهريب المخدرات والاتجار فيها مثلا .. لا تزال هذه الظاهرة متفشية .. العبرة بالتوعية الفكرية والتنوير العقلى .. فالشعوب تتقدم بتطبيق العلوم على حياتها وليس بسن المزيد من القوانين !

— وهل تعتقدين أن دراسة مثل هذه التى تنوين القيام بها كفيلة بمحاربة هذه الظاهرة ذات الجذور القديمة ؟!

— إضاءة شمعة خير من سب الظلام !

تعجبت مدام كوثر لابنتها التى جمعت بين الجمال والحكمة فدعت لها فى قلبها بالتوفيق والمستقبل المشرق :

— يبدو أن الحديث المثير سيسرق الوقت .. هيا بنا .. أخشى أن

يصل أبوك إلى البيت قبلنا !

نظرت ثريا إلى ساعة يدها الدقيقة وابتسمت :

ــ على كل حال .. الطعام جاهز !

نهضت الأم وهى تضع الجريدة فى حقيبة يدها :

ــ التئام الشمل أفضل ألف مرة من الطعام الجاهز مهما كان لذيذا !

وضعت ثريا كتابها فى حقيبة يدها هى الأخرى وسارت فى أعقاب الأم فوق الممر الحجرى بين المساحات الخضراء :

ــ كنت ألهث وراء المراجع فى المكتبات .. مثل كل الباحثين والدارسين .. والآن جاءنى المرجع الأساسى حتى لا أتكلف مجرد الانتقال من بيتى !

ــ وهل عرف بابا بهذا الموضوع ؟!

ــ عرف وتحمس له للغاية ! فهو من أنصار تطبيق العلم على حياتنا العملية ! وتمنى أن يحضر حفلا من هذا النوع !

ــ لكننى أعلم أن مثل هذه الحفلات قاصرة على السيدات !

ــ أحيانا تكون الكودية رجلا .. وأحيانا أخرى يشارك الرجال فى الحفل حتى لو كانت الكودية امرأة .. لكن هذا يعد استثناء من القاعدة !

مرتا بحمام السباحة حيث كانت الأجساد الجميلة شبه العارية تتألق بيللورات الماء المنزلقة عليها ، أو تقفز كالأسماك النحاسية من على السلم ، أو تستسلم تماما لمداعبات الأشعة الذهبية . التفتت الأم لابنتها :

ــ عجيب أمر مصر .. تجمع بين أكثر مظاهر الحضارة الأوربية حداثة وأكثر مظاهر التخلف الفكرى قدما !

ظهرت بوادر ابتسامة ساخرة على وجه ثريا :

ــ لكن يبدو أن الأمر فى الحالتين لا يتعدى حدود المظاهر .. فمثلا تقام حفلات الزار فى كثير من الأحيان للمباهاة وإظهار القدرة على الإنفاق بالإضافة إلى الرغبة المستمرة فى تقليد الأخريات والتفوق عليهن .. فإذا كانت فلانة قد دعت فى حفلها السنوى مائة سيدة فالأخرى تكون أكثر سعادة إذا دعت مائتين وهكذا !!

توقفتا أمام سيارة ثريا البيضاء الصغيرة :

ــ وبالطبع فإن هذه فرصة ذهبية للكودية كى تبتز كل الأموال الممكنة من الجاهلات اللاتى لا يعرفن قيمة ما يملكن !!

ركبت ثريا سيارتها وإلى جوارها أمها . انطلقت خارجة من بوابة النادى ووسط ضجيج السيارات المحيطة بها قالت الأم :

ــ وهل علمت نوال برغبتك فى حضور حفلها ؟!

ــ سعدت للغاية عندما أخبرها حازم .. وأعلنت عن ترحيبها بكل الأحباب والجيران !

ــ طبعاً !! فقد أكد لها هذا أن مملكة الزار يمكن أن تشمل ذوى الثقافة والتعليم الراق أيضا !

ــ وماذا يمكن أن يحدث لو قرأت رسالتى للماچستير بعد ذلك ؟

ــ اطمئنى .. فالقراءة لا وجود لها فى حياة مثيلاتها !

ــ يكفينى حضور حفل أو اثنين .. حتى ألم بكل المظاهر والإجراءات المصاحبة للطقوس المختلفة !

التفتت مدام كوثر فجأة إلى ابنتها :

ــ سأحضر معك الحفل القادم !

ذهلت ثريا لدرجة أن السيارة كانت على وشك أن تصطدم بأخرى أمامها عند إشارة المرور :

— كيف تحضرين حفلا لا يثير فى نفسك سوى الاشمئزاز ؟!

— لست أقل منك حبا للدراسة والمعرفة !

انطلقت السيارة مع الضوء الأخضر :

— لكن أعصابك يا ماما لا تحتمل الزحام والضجيج .. أتذكرين الليلة التى سهرنا فيها فى النادى الليلى ؟! واضطررنا للعودة إلى البيت مبكرين بسبب الحالة العصبية التى انتابتك نتيجة للموسيقى الصاخبة التى كانت تصم الآذان ؟!

غلف الإصرار نبرات الأم :

— على أسوأ الفروض يمكننى أن أعتذر وأنسحب إلى شقتى فى أى وقت أثناء الحفل !!

ابتسمت ثريا ثم ضحكت متسائلة :

— ألا تخشين غضب الأسياد ؟!

شاركتها ضحكتها المنطلقة :

— دستور يا أسيادى !! الرضا والسماح يا أسيادى ؟!

(٥)

ـــ هل ألقيت بماء على الأرض فى المساء دون أن تقولى : دستور يا أسياد ؟!

حاولت نوال أن تتذكر لتجيب على سؤال الأسطى ألطاف :

ـــ منذ أسبوع سقطت من يدى كوب كانت مملوءة حتى منتصفها بالماء .. ونسيت أن أقول دستور يا أسياد !

غطت مسحة من الأسف والأسى وجه الأسطى ألطاف وهى قابعة فى مقعدها الوثير فى غرفة مكتبها بالدور الثانى التى تطل على النيل الذى ترقرقت مياهه تحت المصابيح المصطفة على ضفتيه :

ـــ وهل خبطت الأرض بقدمك فى المساء دون أن تحترسى ؟!

ازداد وجه نوال خشوعا وشحوبا وقد عقدت ما بين حاجبيها :

ـــ لا أتذكر شيئا من هذا القبيل ؟

تألق الخاتم الماسى فى أصبع ألطاف فملأت عينيها به :

ـــ هل صرخت فى دورة المياه أو فى أى مكان مظلم ؟!

ـــ لم يحدث !! كما أننا نترك دورة المياه مضاءة طوال الليل !

لم تسترح ألطاف لإجابات نوال العفوية :

ـــ هل تعمدت التطيب والتعطر كل مساء قبل أن تنامى ؟!

تحول الذبول فى عينى نوال إلى لمعان مشوب بالخوف النامى :

ـــ أفعل هذا دائما !!

ثم تعلقت عيناها بشفتى ألطاف :

ـــ ألا تعلمين أن الأسياد يحبون الأجساد النظيفة المعطرة الطاهرة

فيحلون بها ؟!

كانت نوال على وشك الانتفاض فى جلستها على أثر قشعريرة سرت فى جسمها كله . زاد الضوء الخافت ورائحة البخور الغامضة الخفيفة من رهبتها فى الغرفة الساكنة التى رددت صدى كلمات نوال المتسائلة فى همس أجوف :

— هل هناك خوف علىّ منهم ؟!

ومضت عينا ألطاف برغم ضوء الأباچورة الزرقاء الخافتة :

— سنرى .. هل حدث أن نمت وأنت باكية ؟!

فرحت نوال بالسؤال وهى تحاول إيقاف جحافل الخوف :

— لم يوجد الإنسان الذى يمكنه أن يفعل بى هذا !

اغتاظت ألطاف لهذه الثقة الطارئة على نوال التى تزوجت من ذلك المعتوه الذى تسبب منذ عشرين عاما فى أن تقضى ليلتها ذبيحة وليست باكية فقط :

— هل ذكرت أسماء الأسياد بشىء من السخرية وعدم الاحترام اللائق بهم ؟!

— لم يحدث هذا على الإطلاق !

خفف الهواء المكيف من حنق ألطاف التى استعادت سيادتها على الموقف :

— هل كررت النظر إلى المرآة فى الليل ؟!

عادت القشعريرة لتجتاح كل مسام بشرتها :

— هذا يتكرر فعلا .. عند الخروج ليلا .. وقبل النوم !

استرخت ألطاف فى ردائها الأبيض الحريرى الذى يكاد يفترش

الأرض تحت قدميها ، واستنشقت العطر الذى كمن شذاه بين طيات شعرها الأسود الناعم اللامع المسترسل على ردائها الأبيض . ركزت عينيها الواسعتين ببريقهماالأسود الممزوج بوميض الفضة على شحوب نوال :

— إن شحوب وجهك نتيجة لعدم رضا كادو سلطان الجن الأحمر عنك ! وسنتأكد من ذلك بعد كشف الأثر !

صمتت ألطاف لتستمتع بالرعب الناضح من عينى نوال ، والراقص على شفتها العليا . لم تحتمل الصمت الرهيب فتساءلت :

— هل الأمر قاصر على مجرد الشحوب ؟!

— هذا يتوقف على ما تشعرين به !

تحولت القشعريرة إلى اهتزازة فى مقعدها :

— لا أعرف ما أشعر به بالضبط .. لكننى أظن أحيانا أننى مصابة بالخمول وعدم القدرة على الحركة بنشاط !

— يبدو أن الأمر قاصر على عدم رضا سلطان الجن الأحمر عنك .. أما سلطان البحر وابنته سفينة ثم ياور بك وركوشة وماما وأبو الغيط وأم الغلام فسنتأكد من رضاهم عنك فيما بعد !

شعرت نوال أنها التصقت بمقعدها :

— دستور يا أسيادى !! نظرة يا أسيادى !

انتصبت ألطاف فى مقعدها كملكة على عرشها :

— سنبدأ بكشف الأثر .. هل أحضرت قطعة من ملابسك والمبلغ الذى حددته لك ؟!

فتحت نوال حقيبتها بيد مرتشعة وأخرجت لفة صغيرة من القماش (الكودية)

الأبيض وقدمتها لألطاف التى وضعتها على المائدة الصغيرة إلى جوارها وهى تعلق بوقار ومهابة :

— سأضع هذا الأثر تحت وسادتى قبل أن أنام .. وسأظل أتلو من التعاويذ الخاصة حتى يتراءى لى فى الحلم ما بك من أمراض وعلل .. كذلك سأشركك فى عملية الرؤيا نفسها !

تساءلت لاهثة بقلب واجف :

— كيف ؟

— ضعى فى فمك قبل النوم قطعة من السكر .. واشربى قليلا من ماء الورد .. ثم ضعى بالقرب من رأسك وأنت نائمة رغيفا من الخبز عليه قليل من الملح والسكر حتى تحصلى على رضا الأسياد عندما ترين فى المنام ما يلزم لصرف غضبهم عنك !

تضاعفت رعشة نبراتها الخارجة من حلق جاف :

— وإذا فعلت كل هذا و لم أر شيئا !!

— لا تحملى هما .. سأرى بنفسى كل شيء لك !!

ربتت ألطاف على كتف نوال فانتفضت ثم تماسكت :

— وهل هناك أشياء أخرى مطلوبة منى ؟! ومتى أقوم بها ؟

— قبل القيام بأى شيء .. سأملى عليك روشتة كى تحضريها وأعدها لك لبدء العلاج فورا .. هل معك ورقة وقلم ؟!

— أظن ذلك !

فتحت حقيبتها وأخرجت ورقة وقلما واستعدت لما ستمليه عليها الأسطى التى التحف صوتها بأردية الوقار :

— دهن بلسان وبخور جاوى ومستكة تركى ومرّ بطارخ وبرشام

خميرة بيرة مع عسل أسود .. وسأقوم بتحضير هذه العطارة المركبة بنفسي بعد أن أضيف زجاجة ماء ورد إلى دهن بلسان .. عليك بدهن جسمك ثم الاستحمام وإلقاء الماء بين ثلاثة مفارق .. وبعد ذلك تتبخرين ببخور جاوى !!

انتهت نوال من كتابة المطلوب بخط كبير ردىء زاخر بالأخطاء الإملائية لكن من السهل عليها أن تقرأه :

ـــ ومتى يتم كشف الأثر ؟!

ـــ ليس قبل ثلاثة أسابيع من تناول الدواء والتأكد والثقة من مطالب الأسياد وما يغضبهم وما يرضيهم !

ـــ غدا .. سأحضر كل طلباتك !

ـــ خير البر عاجله .. وكيف حال الست عدالات ؟!

فوجئت نوال بالسؤال فأجابت دون تفكير :

ـــ تهديك السلام !

ـــ هل شعرت بالغيرة من انتقال الحفلات إلى بيتك ؟!

ـــ لا أعرف على وجه التحديد !

نهضت ألطاف سائرة حتى زجاج النافذة المطلة على النيل :

ـــ إنها لن تأخذ زمنها وزمن غيرها !

ثم استدارت لترى وقع كلماتها على وجهها الشاحب وهى تجيب فى قلق لاهث عندما انتفضت واقفة هى الأخرى :

ـــ إنها تصر على حضور حفلاتى !

ـــ الجميع يخافون غضب الأسياد !

وضعت نوال الورقة والقلم بحرص شديد فى حقيبتها ومدت يدا

مرتعشة بالسلام،ثم استأذنت فلم تقم ألطاف بتوصليهاإلى باب الفيلا بل ظلت فى غرفتها تستمع إلى إيقاع أقدامها المتباعدة ، وتستمتع بإطلالتها على النيل من عل ! سمعت صوت أقدام خفيفة خلفها ، فاستدارت لتجد كافورا الذى لم يتخلص وجهه من مسحة الحزن . سألته :

— ألا زلت حزينا ؟! إن المرحومة تعيش معنا بروحها !

وقف إلى جوارها بجلبابه الأبيض الفضفاض :

— ليس هذا فقط !

شعرت ببوادر خطر كامن فى نبراته فتصنعت اللهفة عليه :

— خيرا ! .. هل حدث مكروه ؟!

— أبداً .. إنه الموضوع القديم الذى طالما تحدثنا فيه !!

آه .. إنه يضرب على الوتر المشدود داخلها دون أن يعرف استرخاء :

— كل شىء باذنه !

— ما يدهشنى كيف تقصدك النساء طلبا للإنجاب فى حين —

كان على وشك أن يكمل جملته ، لكنها وضعت يدها على فمه :

— حرام أن تقول مثل هذا الكلام ! إنك بهذا تغضبهم !

أشاح بوجهه كطفل يحاول عدم مواجهة محدثه :

— عاشت أمى عمرها كله غى خدمتهم ثم زوجتى من بعدها .. أليس من حقى عليهم أن أرزق بولد مثل كل الآباء ؟!

احتوته فى وقفتها أمام النافذة تحت ذراعها :

— نحن خدم لهم .. والخدم ليست لهم أية حقوق على أسيادهم !

لا يزال يشيح بوجهه كأنه يخاف النظر فى عينيها :

— أوشكنا على أن نتم عشر سنوات من زواجنا .. ولم يتحقق الحلم .. لدرجة أن أصدقاء المقهى اتخذوا منى موضوعا للتندر والسخرية !

لعنت إلحاحه فى قلبها ! لماذا يصر هذه الليلة على تذكيرها بالجرح الذى طالما حاولت نسيانه وتجاهل آلامه ؟! آه يا بسيم الكلب ! لابد أن تدفع ثمن ما اقترفته يداك ! لن تهرب من العقاب بعد أن أكد لى أكثر من طبيب أن الإجهاض القديم تسبب فى العقم المزمن ! ومع ذلك لن أفقد الأمل حتى لو أنفقت ثروتى على العلاج !

— لماذا لا تردين ؟!

شدها صوته الخافت المهتز النبرات من شرودها ، فتذكرت فى الحال آخر كلمات مريرة قطرها فى أذنيها :

— لعنة الله عليهم .. فهم أصدقاء السوء .. يغيرون منك لأنك سيدهم وتاج رأسهم !

— ومع ذلك فهم آباء !

أخذته من يده برقة متناهية إلى أريكة وثيرة فى ركن يطل على النيل وأجلسته إلى جوارها فى محاولة مستميتة لإخفاء جذوة النار داخلها :

— أعدك بأننى سأبذل المستحيل كى أحقق لك أمنيتك !

— سمعت هذا الوعد أكثر من مرة !

رفعت ذراعها من على كتفه وهى تحاول صد موجات المرارة داخلها :

— فلتفعل ما يحلو لك ! فأنا لا أستطيع أن أحرمك نعمة الأبوة !

شعرت بجسده مشدوداً وكلمات متعثرة تتلكأ على شفتيه :

— كانت أمى .. الله يرحمها .. قد طلبت منى أكثر من مرة أن أتزوج بأخرى تحقق لى أمنيتى !

لم تطلب لها الرحمة هذه المرة ! حتى الأسطى ريحانة التى وجدت فيها ملجأها ودنياها ومستقبلها ! استعادت قوة شكيمتها فانحسرت موجات المرارة :

— ولماذا لم تلب طلبها ؟! فلم أكن لأمانع لو كانت صارحتنى بذلك !

توقفت لتتحسس وقع كلماتها على وجهه لكنه كان مطرقا برأسه هاربا بعينيه بين نقوش السجادة الفارسية الفاخرة ، فقررت أن تسبح حتى أعماقه :

— بل وكنت سأصر على ذلك !! بل وبحثت بنفسى لك عن زوجة مناسبة !! ويكفينى أن أقوم أنا بدور الزوجة العاقر .. أو حتى المطلقة الطريدة ؟!

بدت فى كلماتها الأخيرة رعشة متعمدة ، لكنه سرعان ما التفت إليها ممسكا بيدها فى حنان متدفق :

— لا تقولى مثل هذا الكلام ! فأنت حياتى ودنياى بعد أمى ! ولا أتصور زوجة فى حياتى غيرك !

احتضنته حتى احتوته تماما وأغرقت وجهه بالقبلات :

— قلبى يؤكد لى أن الزمن لن يضن علينا بطفل يملأ عليك حياتك !

استسلم لها كطفل مستمتع بأحضان أمه دون أن يفتح فمه ، ففاضت الغرفة بالصمت الناعس الذى تركته ألطاف يهدئ من فورات العواطف المرة . لكن أذنيها اللتين دربتا على سماع دبيب النملة التقطتا

حفيف رداء خلف عتبة الباب . تملصت من كافور برقة ، وحاولت بقدر الإمكان ألا تحدث صوتا بقدميها ، لكن الصمت المتكاثف جعل للسكون صوتا ، فإذ ببنفسج تدق على الباب دقتين وتدخل مستأذنة أو مدعية للاستئذان للبيات فى بيتها :

ـــ منذ متى كنت منتظرة خلف الباب ؟!

لم يكن سؤال ألطاف مفاجأة لبنفسج التى قالت بمنتهى الهدوء والتماسك :

ـــ حالا .. لماذا ؟!

ـــ أبداً .. شعرت بوجودك منذ مدة !

ـــ لم يحدث ! فقد انتهيت حالا من إصلاح البندير لحفل الغد ! كما أننى كنت أريد أن أفاتحك فى موضوع خاص بى !

لم تكن لدى ألطاف رغبة فى تصاعد الجدل ، لكن الجملة الأخيرة أثارت حب استطلاعها :

ـــ أى موضوع ؟!

ترددت بنفسج قليلا لكنها قالت بثقة هامسة :

ـــ ابنتى سوسن بلغت الآن العشرين من عمرها .. وقد لقنتها الأناشيد والأغانى والتعاويذ كلها .. حتى أتقنتها تماما .. وأود أن تساعدنا فى الحفلات بعد أن تقدم بى العمر .. وبعد أن زاد الإقبال عليك !!

صمتت بنفسج فى حين تذكرت ألطاف وجه سوسن الجميل وجسدها المثير الناضح بالنداء ، وزوجها كافور الذى لا عمل له سوى أن يندب حظه العاثر الذى حرمه من الإنجاب . جلجل صوتها برغم

تحكمها فى أعصابها :

ـــ عندما أريد من يساعدنا سأطلب بنفسى .. لا داعى للتبرع بالاقتراحات .. فأنا أدرى بما يتطلبه العمل !!

نزف الجرح القديم داخل بنفسج ، لكنها تماسكت كعادتها :

ـــ كما تحبين .. تصبحين على خير !

قالتها بنفسج وانصرفت دون انتظار لكلمات أخرى . عادت ألطاف تمسك بكافور وتجذبه بدلال من جلسته حتى وقف :

ـــ هل سنقضى الليل بطوله هنا ؟!

ابتسم كافور لأول مرة :

ـــ حيث تكونين أنت أكون !

احتضنها وأطبق على شفتيها فتركت جسدها عجينة ليشكلها بيديه . سارا سويا ، لكن منظر النيل أصابها بانقباض مفاجىء عندما تذكرت ليلتها الرهيبة على ضفته الباردة المطيرة . قاومت الإحباط عندما شعرت بسخونة جسده الملتصق بها فى طريقهما إلى الفراش !

(٦)

مع غروب شمس ذلك اليوم غادر بسيم وكالة البلح منطلقا بسيارته إلى البيت بعد يوم شاق قضاه فى حل مشكلات بعض العمال فى الورشة . كانوا يطالبونه برفع أجورهم وعندما حاول حسم المفاوضات إنقاذا للوقت الضائع والإنتاج المهدر سمع أحدهم يميل على أذن جاره ويقول له إنه معذور ، فالأمر ليس بيده وإنما بيد الست ! تلقى بسيم الكلمات كطعنات نجلاء فى قلبه برغم أنه يدرك أنها حقيقة واقعة . تجاهل ما سمعه ، وبدلا من إصراره على أن أجورهم هى أعلى أجور يحصل عليها عمال ورش الخراطة والميكانيكا فى مصر كلها ، عاد ووعد ببحث الأمر حتى يرضى جميع الأطراف محاولا أن يطيب خاطرهم ، لكنهم عادوا إلى آلاتهم على مضض ، بحيث تأكد بسيم أن مفعول مسكنات المكافآت والحوافز وتطييب الخواطر لن يستمر طويلا ، ولابد أن يصل إلى موقف حاسم مع نوال وإلا ضاع كل ما كافح أبوها من أجله وخطط أبوه له ! ولابد أن يسرع قبل أن تقيم أول حفل زار لها حتى لا تستغرقها الدوامة وربما عجزت عن الخروج منها . فهى الآن تنفق بجنون على لزوم العطارة والملابس الحريرية الخاصة بالحفل ، وذلك بالإضافة إلى ما تستنزفه الكودية منها ، فما بالك إذا قامت الحفلات على قدم وساق ؟!

انطلقت السيارة بحذاء الكورنيش مخترقة نفق قصر النيل ، والشمس لا تزال ترسل خيوطها الساخنة برغم اختفائها تماما وراء الأفق. لم تعد نوال تهتم بأحد ! لم تكلف نفسها أن تسأل ابنها عن مدى توفيقه فى إجاباته على أسئلة امتحان آخر العام الذى بدأ منذ أسبوع ! أما هو فكان يهرب

طوال اليوم من جو البيت الخانق الكئيب إلى الورشة حيث يدفن إحباطه وضعفه ويأسه بين ضجيج آلاتها وصخب عمالها . والآن أصبحت هى الأخرى مكانا خانقا كئيبا بعد أن كان يظن أن سيطرة زوجته على كل شىء ، سر لم يخرج من غرفة نومه !

فكر فى أن يزيد من أسعار الإنتاج دون علمها ، حتى يمكنه أن يرفع أجور العمال وأن يكتسب شعبية بينهم ، خاصة وأن أسعار الورشة تقل بعض الشىء عن السوق ! لكنه عدل عن فكرته كى يدرأ عن نفسه متاعب هو فى غنى عنها ! فعلى الرغم من عدم إكمالها لتعليمها ، حرص أبوها قبل وفاته على اطلاعها على كل أسرار الورشة وحساب الأرباح والخسائر لدرجة أنها أصبحت خبيرة فى مسك الدفاتر ، وبمجرد إلقاء أول نظرة عليها لا تفوتها شاردة ولا واردة . ولابد أنها ستسيىء الظن بأى إجراء يتخذه دون علمها ، حتى لو كان من أجل الصالح العام للعمل !

يا له من يوم ثقيل سخيف ! كتب عليه فيه مواجهة العمال فى النهار ، ومواجهة نوال فى المساء ! وها هو يخترق جاردن سيتى ثم ينحرف يمينا مهدئا من سرعة السيارة التى دخل بها إلى الجاراج . حمل حقيبته الصغيرة مسرعا مع دقات قلبه إلى المدخل . استقل المصعد وفى لحظات كان أمام باب شقته ليفتحه ويدخل باحثا عن زوجته التى لم يجدها ، وإنما وجد باب الحمام مغلقا . دق عليه فأجابت من الداخل ، أدار المقبض وفتحه قليلا ليراها جالسة عارية على حافة البانيو وهى تدهن جسمها بدهن فاحت منه رائحة الورد . لم يسترح لتأمل شعرها البنى الخفيف وجسدها الشاحب المترهل فى بعض أجزائه برغم نحافتها ! سألته وهى

تنحنى فى جلستها لتدهن ساقيها النحيلتين :

— خيرًا ؟! هل حدث ما يعكر الصفو فى الورشة ؟!

— هناك موضوع عاجل لابد أن أحسمه معك !

— هل تريد حسمه وأنا عارية هكذا ؟!

شعر بقطرات عرق برد تنضح من صلعته الصفراء المستديرة اللامعة :

— سأنتظرك خارجا !

— نم قليلا .. فلدى ما سيستغرق وقتا طويلا بعض الشىء !

دفعه الإحباط المتزايد إلى إغلاق الباب والعودة إلى غرفة مكتبه . قبل أن يدخلها فتح باب غرفة حازم فوجدها مرتبة كما تركتها الدادة ! لابد أنه فى زيارة لمعبودته ثريا بحجة مساعدته فى الامتحانات القائمة على قدم وساق ! جلس إلى مكتبه تاركا الباب مفتوحا لينتهز خروجها من الحمام . لأول مرة يجتاحه القلق بهذا الشكل ! ترك المكتب وظل يذرع الغرفة ذهابا وإيابا بين النافذة التى تطل على شارع القصر العينى بحركته الدائبة وضجته التى لا تهدأ ، وبين الباب المؤدى إلى الحمام بسكونه المريب وصمته الثقيل !

فجأة سمع صوت هدير المياه داخل الحمام فعرف أنها شرعت فى الاستحمام . عاد إلى الجلوس إلى مكتبه حتى توقف صوت المياه عن التدفق وفتح الباب لتسرع إلى غرفة نومها لترتدى معطفا فوق ردائها الخفيف فى حين غطت رأسها بمنديل أبيض ضخم بدا كالعمامة . عادت إلى الحمام لتحمل دلوا صغيرا به ماء وصابون امتزجت فقاقيعه بماء الورد ! كل هذا وبسيم يتابعها عن كثب دون أن ينطق بكلمة . لكنه لم

يستطع التزام الصمت عندما وجدها تفتح باب الشقة وتخرج بهذا الشكل . قفز وراءها حتى باب المصعد :

— إلى أين بهذا الدلو ؟!

— قلت لك أكثر من مرة إن هذه الأمور ليست من شأنك !!

— أنا زوجك ومن حقى أن أعرف كل شىء عنك !

— من يسمعك يقل إننى أخونك مع آخر !

جاء المصعد ففتحته فأسرع إلى الدخول معها برغم أنه ترك باب الشقة مفتوحا . هبط المصعد وهى تقول له فى سخرية :

— إنك بهذا السلوك تعرض الشقة كلها للسرقة !!

— لا فرق بين من يسرقون الناس بعنف وخلسة وبين من يسرقونهم بذكاء وعلانية !

— ماذا تقصد ؟!

— لن أقول لك إلا إذا قلت لى ماذا تنوين أن تفعلى الآن !

توقف المصعد فخرجت منه وهو يهرول فى أعقابها :

— تريدين أن تجعلى منا فرجة للناس ؟!

لم ترد وإنما أسرعت خارجة ثم انحنت إلى شارع جانبى خلف العمارة وعند التقاء ثلاثة مفارق ألقت بالماء على الأرض فى حين كان متسول عجوز يرقبها فى جلسته على الطوار وقد بدت على وجهه آيات الدهشة لدرجة أنه نسى أن ينادى طلبا للحسنة ! وحمد بسيم الله على أن الظلام كان قد طمس معالم الأشياء إلى حد كبير حتى لا يلمحه أحد من الجيران فى وقفته الحرجة الشائكة هذه مع زوجته المعتوهة ! أسرعت عائدة وهو خلفها فى صمت لم يقطعه إلا فى المصعد :

— هل انتهيت من المهمة أم أن هناك إجراءات أخرى ؟!

لاحظت نبرته المشحونة بالحنق والسخرية والمرارة المكبوتة ، لكنها لم تعبأ به ، فقد كانت فى قمة السعادة والنشوة لما تفعله . أجابت بمنتهى الهدوء والبرود :

— لا تزال هناك خطوة أخيرة .. بعدها يمكن أن نتناقش فى كل شىء وفى أى شىء !

سلم أمره لله ، وعاد أدراجه إلى غرفة مكتبه يذرعها جيئة وذهابا ! لكن حب الاستطلاع اشتعل داخله مرة أخرى عندما تسللت إلى أنفه رائحة بخور نفاذة ذكرته بتلك الرائحة التى كان يشمها قبيل إقامة أمه لحفلات الزار ! وهل يعقل أن يصبح الزار ضربة تصيب أمه ومن بعدها زوجته ؟! طالما سعد بزواجه وانتقاله إلى شقة زوجته هربا من جنون أمه بالزار ، فهل يعيد التاريخ نفسه ويظل الزار يطارده طوال حياته ؟ لم يعد يخشى غضب الأسياد مثل أبيه ! فما يعانيه الآن من إذلال ومهانة وإحباط ومرارة أبشع ألف مرة من غضبهم المزعوم ! أم أنه لعنة تطارده هو بالذات نتيجة لما اقترفه مع تلك البائسة التى طوتها الأيام فى ليلة غادرة و لم يعرف لها مصيرا بعد ذلك ؟! لشد ما قتله إحساسه بالذنب ! لكن ما باليد حيلة !

كان هو الآخر ضحية جبنه الذى جعله ألعوبة فى يد أبيه ثم فى يد زوجته ! لم يتخذ قرارا من شأنه أن يحدد به مسار حياته الخاصة ! كان يفضل دائما الطريق السهل ، لكنه لم يعرف أن صعوبته تزداد كلما سار فيه ! طرد أبوه تلك الجميلة المغرية البائسة فى ليلة يائسة فلم يحرك ساكنا وهو يدرك تماما أنه السبب فى كل ما جرى وما سيجرى لها ! خطط له

أبوه زواجه من تلك المعتوهة الثرية فلم يمانع طالما أنه سيعيش فى بحبوحة من العيش الرغد دون جهد يذكر ! شاركت زوجته أمه فى حفلات الزار فلم يستطع أن يفعل شيئا سوى إبداء ضيقه بكثير من التحفظ ! وها هى الآن تنتقل بهذه الحفلات إلى عقر داره دون أن يملك ما يمكنه من التصدى للطوفان ! حتى الطلاق لا يستطيع أن يلقى بيمينه عليها كما لو كانت العصمة بيدها ! فالعصمة حيث الثروة وهو لا يملك شيئا حقيقيا ، كما أنه لا يستطيع أن يبدأ حياته من جديد بعد أن تعدى الأربعين !

انتزعته رائحة البخور النفاذة من خواطره المتخبطة عندما وجد غلالة رمادية شفافة تتهادى لتغلف الغرفة بلونها . كانت الرائحة زكية ومع ذلك شعر باختناق نهض على أثره إلى الصالة فوجد مبخرة على الأرض وزوجته تمر فوقها جيئة وذهابا بحيث ملأ البخور تضاعيف ردائها الحريرى الأبيض من الداخل ! ظل يتأملها فى وقفته عند باب الغرفة لعلها تلحظ وجوده وتخجل مما تفعله ، لكنها كانت فى حالة من التجلى والنشوة تمنعها من الإحساس بمن حولها . اصطنع حشرجة فى حلقه وأزالها بصوت عال لكنها لم تلتفت إليه وطيات البخور تكاد تجعل الرؤية متعذرة . دمعت عيناه فلم يعرف إذا كانت دموع البخور أم دموع الضياع ؟!

دخل الغرفة مرة أخرى وسحابات البخور ذات الدخان الرمادى الذى فقد شفافيته ، تهاجمه فى تحد متصاعد لدرجة أنه فكر فى مغادرة الشقة والسير على غير هدى فى الشوارع حيث الهواء الطلق ومياه النيل المتدفقة . لكنه كعادته استسلم لما يجرى ، انتظارا لانقشاع الضباب . لكن الانتظار طال والسكون ساد والدخان استعاد شفافيته ، فنهض إلى

الصالة فوجد المبخرة فوق المنضدة وان لم تكن خمدت بعد . كانت هناك بعض الجمرات المشعة تحت الرماد المتكاثف ، لكن نوال اختفت . بحث عنها فوجدها فى فراشها ممددة فى استرخاء ونشوة تجلت فى عينيها المثبتتين على بللورات الثريا المنطفئة . أضاء الأباچورة وجلس على حافة الفراش :

— نوال .. لابد أن تسمعى جيدا ما سأقوله لأنه يمس مستقبلنا كله !!

تململت قليلا فى فراشها دون أن تنظر إليه فتأكد أنها منتبهة إلى ما سيقوله :

— لثالث مرة يطالبنى العمال برفع أجورهم .. ويهددونى بترك الورشة إذا لم أرضخ لهم !

بدا عليها الضيق لخروجها التدريجى من النشوة السارية فى عروقها بالخدر الممتع فقالت دون أن تنظر إليه :

— إنهم يحصلون على أعلى أجور ممكنة .. فإذا لم يرضوا ويقنعوا بها فمع السلامة .. ليس هناك أكثر منهم عدداً !

— كان هذا أيام أبيك الذى اعتاد أن يطرد عاملا فيجد عشرة فى الانتظار .. أما هذه الأيام فقد أصبح العامل عملة نادرة بعد أن هاجر معظمهم إلى دول البترول للعمل هناك بأجور خيالية !

— آخر دفاتر قمت بمراجعتها أكدت لى أن الميزانية لا تسمح !

— يمكن ضغط المصروفات لإرضائهم ولو برفع طفيف لأجورهم !

— هل يمكن ضغط المصروفات التى تنفق على الورشة ؟!

— لم أقصد هذه المصروفات فهى لا تحتمل أى ضغط !

انتفضت جالسة فانتفض بدوره وإن بدا متماسكا :

— ماذا تقصد ؟! أنت تعلم جيدا كم أنفق شهريا على أخى فى المصحة !!

— لم أقصد هذا أيضا ؟!

استدارت لتواجهه فاهتز كرشه المنتفخ من فتحات القميص الأبيض :

— أعرف جيدا ما ترمى إليه !!

قرر أن يقول لها ما لم يجرؤ عليه من قبل :

— إنه بالوعة لا قرار لها !

تصاعد التحدى مع بوادر وقاحة :

— مالى وأنا حرة فيه !

— إنما أنا خائف على حياتنا وعلى مستقبل حازم .. عندما يخرج إلى الحياة لن يجد ما يمكنه الاعتماد عليه !

— لا تحاول أن تفرض سيطرتك علىّ بالخوف !

تدفقت موجات الإحباط الممزوجة بالمرارة داخله . فهو لم يحاول قط أن يفرض سيطرته على أحد ، بل ترك الآخرين يفرضون عليه سيطرتهم الواحد بعد الآخر ، ابتداء بأبيه ثم هذه المعتوهة وعمال الورشة ! حتى حازم الذى لم يتعد الثامنة عشرة من عمره لا يقيم لرأيه وزنا ! إلى متى سيظل تاركا نفسه للتيار يلقى به حيثما يشاء ؟! قرر أن يقول الآتى وليكن ما يكون :

— إذا أغلقت الورشة ذات يوم لعدم وجود عمال .. فلن تكون مسئوليتى !

عادت إلى الاسترخاء وهى تدير له ظهرها :

ـــ الورشة التى استمرت مفتوحة أكثر من ثلاثين عاما .. لا يمكن أن يتم إغلاقها فى آخر الزمن على يديك !

أدرك عدم جدوى الجدل العقيم فسلم أمره لله وذهب إلى غرفة مكتبه . سمع مفتاحا يدور فى ثقب باب الشقة الذى فتح ودخل حازم الذى توجه إلى غرفة المكتب المضيئة :

ـــ مساء الخير يا بابا ..

كان فى فورة قنوطه :

ـــ أين كنت ؟!

ذهل حازم للإجابة أو للتساؤل الثقيل فازداد شحوب وجهه ، وتضاعفت الهالات السوداء حول عينيه ، وطالت شعيرات ذقنه التى لم يحلقها منذ ثلاثة أو أربعة أيام :

ـــ لو كان لديك أقل اهتمام بى لعرفت أين كنت !

هرب من حرجه بالتشاغل ببعض الملفات أمامه :

ـــ أنت تعلم جيدا كم أنا مشغول بإدارة الورشة طوال اليوم !

ـــ لكن هذا لا يمنع أن تعرف أن ابنك ووحيدك كان يمتحن مساء اليوم من الرابعة إلى السابعة !

لم تخف رنة السخرية والمرارة المكبوتة على الأب ، لكنه التمس العذر لابنه الضائع مثله تماما . يكفيه عجزه عن معرفة نوعية العلاقة بينه وبين ثريا ، فلم يتعود المواجهة والمصارحة حتى مع ابنه ! وإذا كان قد فشل فى توجيه دفة حياته طبقا لإرادته الشخصية ، فليس من حقه أن يفرض على ابنه وجهة معينة :

ـــ والله وحده يعلم كم أتمنى لك التوفيق والنجاح فى حياتك

ومستقبلك ؟

ـ شكرا يا بابا .. عن إذنك !

انسحب حازم من الغرفة فى سكون بليغ . أطرق بسيم برأسه فوق المكتب بمرفقيه . فى تلك اللحظة أدرك سر حماسه لتسمية ابنه يوم ولد بحازم . كان يتمنى فى أعماقه أن يخرج من صلبه ابنا يعوضه عن إرادة الحزم التى طالما تاق إلى الإمساك بها منذ تلك الليلة الكابوسية لكن دون جدوى . ولعل الإنجاز الوحيد الذى حققه فى حياته أنه احتفظ بذكراها مدفونة فى أعمق أعماقه المظلمة التى لا يمكن أن تتسلل إليها نوال التى تسللت من قبل إلى كل ثغرة من ثغرات كيانه الهش !

(٧)

لم تشعر ألطاف بحماس دافق نحو مريضة من مرضاها مثلما شعرت نحو نوال . عرضت الأثر الذى أتت به للبخور سبع مرات ، وتلت عليه التعاويذ والتمائم ، وظلت تبتهل إلى الأسياد . وعندما راود النوم عينيها وضعت الأثر تحت الوسادة ونامت لتزورها الأسياد فى الرؤيا . رأت مريضة نائمة فسألت عن سبب مرضها ، فأجابها شيخ وقور هو كادو سلطان الجن الأحمر ثم سيدة عجوز هى الست الكبيرة أن المريضة أصابها الخمول وعدم القدرة على الحركة بنشاط ثم آلام الساقين والذراعين نتيجة لمخالفات قامت بها فى وقت معين عندما ألقت بماء على الأرض فى المساء دون أن تقول : دستور يا أسياد ، وخبطت برجلها على الأرض فى المساء أيضا دون أن تحترس ، كما تعمدت أن تتطيب وتتعطر قبل أن تنام ، وكررت النظر إلى المرآة فى الليل !

ونظرا لخطورة المخالفات التى قامت نوال بها والتى دفعت السلطان والست الكبيرة إلى تلبسها ، فإن الأسطى ألطاف طلبت من نوال مصاغا من الذهب الخالص وملابس من الحرير والفراء وغير ذلك من المستلزمات التى تجاوزت فى قيمتها أرباح الورشة فى أربعة شهور ! وكانت نوال قد حضرت الحفلات الأسبوعية التى أقامتها ألطاف فى بيتها بمجرد مرور ذكرى الأربعين ، للتأكد من مطالب الأسياد والأسباب التى أدت إلى غضبهم . وعندما تم التأكد على وجه اليقين ، قامت الاستعدادات على قدم وساق للحفل الخاص بنوال والذى أعدت له

شقتها لأول مرة !

عند الغروب أتمت الأسطى ألطاف نصب الكرسى . وضعت على المائدة المستديرة الصينية الكبيرة بعد أن غطتها بمفرش أحمر من القطيفة الفاخرة ، وعليه كميات ضخمة من الأطعمة والفاكهة والمكسرات والحبوب بأنواعها المتعددة : بلح جاف وسكر وكعك وملبن وحلوى مختلفة ، وأنواع من الجبن واللحوم المجففة واللبن والصابون وزجاجة من الخمر توسطت الصينية التى تناثرت عليها الشموع الصغيرة ، وحولها شمعدانات بها شموع كبيرة موقدة لم تشعر الحاضرات بإطفاء الأنوار الكهربية .

دخلت نوال مزهوة لتزف حول الكرسى فى ثوبها الأبيض الجديد وقد غطت رأسها بطرحة بيضاء هفهافة فى ابتهاج واضح ، ومعها الصديقات اللاتى جئن ليشاركن فى تلك الليلة المبهجة المباركة : الست عدالات برغم الحزن الدفين الذى امتزج بالغيرة الكامنة فى عينيها الزائغتين ، والدكتورة ثريا التى تألقت فى ثوبها الأبيض البراق مع خصلاتها الذهبية اللامعة ، وأمها مدام كوثر التى شاركتها فى ملامحها الجذابة المبهرة وإن لم تشترك معها فى البهجة والراحة النفسية . كان الاشمئزاز يتنقل مع عينيها ذات اليمين وذات اليسار ، مع ارتعاشة فى الزاوية اليسرى لشفتها السفلى الرقيقة ، وهى تسير فى الطابور أو الموكب الذى ضم ما يقرب من عشرين صديقة وضعن سلاسل فضية وأساور وخلاخيل ذات جلاجل تحدث أصواتا وأصداء كلما اهتزت .

وكانت الأسطى ألطاف قد انتهت أيضا مع المنشدة بنفسج ومساعداتها من تجهيز الآلات الموسيقية وذلك بتعريضها للنار فوق موقد

معد لذلك ، انتهين من آلات الطمبورة والرق والطبلة ، كما أعددن الصفارة والبندير والسلامية . و لم ترفع مدام كوثر عينيها عن نساء الجوقة فى ملابسهن البيضاء ، وعطورهن النفاذة ، وأريج البخور العبق ، وأقراطهن الكبيرة ، وعقودهن المصنوعة من الأحجار المقلدة ، وخواتمهن الكثيرة ذات الألوان المتعددة ، والمناديل المطرزة على رءوسهن المدلى على يسارها حجاب خاص !

أما أفراد الجوقة من الرجال فقد لمع لون بشرتهم السوداء فى ضوء الشموع ، وقد لبسوا المنجور حول وسطهم ، ذلك الحزام المعلق به حوافر الماعز التى تحدث إيقاعات معينة كلما اهتزت أثناء قرع الطبول . كما أطال بعضهم شعره كالنساء تماما مع دلال واضح فى النظرات والحركات .

سألت مدام كوثر الست عدالات عن الموعد الذى ستظهر فيه العفاريت فإذ بالست عدالات تدق على صدرها غضبا ، وقد حلت بها الأسياد الذين نطقت بلسانهم معبرة عن غضبهم الشديد لذكر لفظ « العفاريت » فهم أرواح طاهرة نقية ولا تمت للعفاريت الشريرة بصلة . فاضطرت كوثر إلى الاعتذار لعدالات فى تشنجها ونظرات ثريا المحذرة لها ترجوها أن تصمت وتتابع فقط !

أطلقت الأسطى ألطاف البخور ، وبدأت فى الإنشاد ثم واصلت بنفسج الإنشاد مع الدقات المسعورة :

— شمع الليالى يا ماما يا سيد العيلة .. عزموك يا ماما إنى وادوه على ماما واديه .. على ايه يا حلو يا ماما يا ماما .. يا سلطان جابوا عبايه ماما باللولى والمرجان .. قادوا الشموع لماما والشمع بات سهران ..

وندهت السيدة زينب رئيسة الديوان .. يا شيال الحمول يا متولى شيل حملة العيان .. يا شيخ العرب يا سيد يا ندهة المنضام .. فرشوا الأرض لماما بالفل والريحان !

ثم قامت الأسطى ألطاف بتبخير نوال عروس الزار أولا ، فجعلتها تمر فوق نار المبخرة سبع مرات ، ثم بخرت كل من تقدمن إليها من النساء نظير مبالغ معينة تدفعها كل ضيفة للأسطى حسب مقدرتها . كانت الست عدالات أولهن ثم ثريا التى تسلل البخور الساخن داخل ردائها الأبيض الفضفاض ليحتوى جسدها الجميل الرقيق بدغدغة لم تشعر بمثلها من قبل ، فتأكدت أن اللذة الحسية التى تستشعرها هؤلاء النسوة بالمرور قبل البخور الساخن ، أكبر دليل على الجوع الجنسى الذى ينهشهن من الداخل . ثم جاء دور مدام كوثر ليثير البخور داخلها إحساسا بالقىء جعلها تندم على التواجد بين هؤلاء المهووسات ، وتلعن حب استطلاعها الذى دفعها إلى هذا الجنون . فهى تربأ بنفسها أن تنقاد لدجالة مثل هذه الكودية ، ولذلك قاومت شعورا بالدوار ملأ أطرافها بمواكب من النمل الدقيق الحجم .

وتوالى موكب النسوة . كلما اندمجت سيدة فى الحلبة اقتربت منها الكودية ألطاف ومعها بنفسج والجوقة للضرب بالدفوف فوق رأسها على دقة كادو سلطان الجن الأحمر ويستمر الإنشاد :

ـــ يا أبو قلم فضة والحبر زعفران .. والقول على ماما يا ماما يا سلطان والقول على روما .. يا نجدى يا عجبان .. والقول على يوسيه أخته أم الغلام !

ومع ظهور بادرة انفعال مع فرح أو حزن على وجه أية سيدة من

المتفرجات ، كانت الكودية والمنشدة والجوقة يسرعن إليها بدق الدفوف فوق رأسها لتشجيعها على الانضمام إلى الحلبة مما زاد من عدد المحتفلات ، وأحال الحفل إلى كيان ضاج بالحيوية ، ومهتز بالبهجة ، ومرتعش بالنشوة السارية كمس الكهرباء بين الحاضرات .

وكلما انتشر الرماد على سطح المبخرة ، كانت ألطاف تسرع بمضاعفة البخور من علبة فضية موضوعة إلى جوار الموقد ، حتى يتأجج الدخان ، ثم تميل برأس نوال عليه مع يديها وساقيها ، ثم ترفع الرداء حتى يدخل البخور إلى كل ثنايا جسدها . وبعد ذلك تكرر الطقوس نفسها مع كل الحاضرات وسط إنشاد بنفسج التى رفعت عقيرتها القوية الرنانة به :

ــ ارحمنى يا مولاى يا شيضار وايوه .. رب العباد وياه يا شيضار وياه .. يا رب يا معبود يا غفار الذنوب على العاصى وتتوب .. كل ما أنوى وأتوب يغلب علىّ الوعد والمكتوب .. مكتوب على جبينى حبل الشقا ممدود !

ومع تمزق حبال الوعى ، وانطلاق الحمم المكبوتة ، وهروب خيول الرغبة من عقالها اندمج الفتيان السود بالرقص والإنشاد ودق الدف والطبلة والطمبورة والبندير ، ونفخ الصفارة والناى ، بين الحاضرات يمسكوا بمن توشك على الوقوع أرضا . وكلما غاصت الأيدى السوداء الجامدة فى الأجساد البيضاء الطرية ، علت الآهات والتأوهات اللاهثة التى سرعان ما تتلاشى مع الدقات المحمومة والظلال المتراقصة على جدران الصالة الفسيحة خلف الشموع الصغيرة الموقدة والشمعدانات الكبيرة المتألقة ، مع دخان البخور الشفاف الرمادى المتكاثف مع

قطرات العرق البللورية الناضحة على الأجساد المتمايلة فى جنون ذات اليمين وذات اليسار ، إلى الأمام وإلى الخلف ! وسط أكاليل الورد والنقوش على الجدران !

شعرت مدام كوثر بحبل الاختناق يضيق حول عنقها وكأن فتحتى أنفها قد سدتا . لم تعد الدقات تخترق أذنيها فحسب ، بل هاجمت صدرها وقلبها ! أوشكت على السقوط فتلقفتها يد سوداء صخرية عبثت بنهديها ، وابنتها أمامها مشغولة بتقليد الحاضرات بعينين خضراويين مفتوحتين على كل كبيرة وصغيرة . لكن صرخة خرجت كالرصاصة الطائشة لتدوى فى سمع ألطاف بصفة خاصة ، برغم الدوى الذى يصمُ الآذان . توقفت عن الدق والتمايل فوجدت عينى مدام كوثر قد طفحتا بلون الدماء وتركزتا عليها وهما تنضحان بجنون الاحتقار والاشمئزاز من نفسها ومن كل من حولها ! وفى لحظة تالية انطلقت صرخة أخرى أمسكت ثريا على أثرها بذراع أمها التى صاحت مختنقة :

ــ كفاكم دجلا !! إنكم لا تضحكون إلا على أنفسكم !! أين هى العفاريت التى تتلبسكم ؟!

شدت ثريا أمها من ذراعها التى ضغطت عليها :

ــ لا داعى لهذا الكلام يا ماما !! يمكنك أن تنصرفى بلا ضجة !

لكن ألطاف المتنمرة المتربصة بها خافت على عرشها من الاهتزاز فوضعت الدف على مقعد قريب من المائدة عليه شمعدان كبير ، وزحفت إليها بردائها الأبيض الحريرى الطويل ، ووجهها ذى الجمال الوحشى ، وعينيها السوداوين الواسعتين العميقتين عمق آبار الأساطير ، وبشرتها البيضاء المضرجة بالحمرة والناضحة بالعرق ، وشعرها الأسود الطويل

ذى الشلالات اللامعة المتدفقة على كتفيها وظهرها ، فى حين توقفت المنشدة عن الإنشاد ، والجوقة عن الدق ، وساد صمت لم يحدث من قبل فى حفل للزار !

ركزت ألطاف عينيها على وجه كوثر فى حين تحولت كل الحاضرات إلى تماثيل شمعية من ذهول وشرود وهلع ! صاحت ألطاف فى كوثر التى اهتزت وهى تقاوم دواراً عاتيا يوشك أن يتحول إلى إغماء :

— كيف تجرؤين على تسمية الأرواح الطاهرة بالعفاريت ؟ هل جننت ؟! سأتركك للعنتهم ! فأنا وإن كنت خادمتهم فإننى فى حالتك لا أستطيع طلب سماحهم ورضاهم !

صرخت نوال فيما يشبه النحيب :

— دستور يا أسيادى .. الرضا والسماح يا أسيادى !

أطلقت ألطاف سهام عينيها النارية على وجه كوثر التى قاومت الإحساس الزاحف بالإغماء قدر إمكانها ، وثريا متشبثة بذراعها فى رعب دفين ! لم تسترح ألطاف لصمود كوثر المؤقت فأرادت أن تسحقها وتذروها مع البخور الآخذ فى التلاشى . صاحت :

— بحق كادو سلطان الجن الأحمر .. وبحق الست الكبيرة .. وبحق هذا الحفل الذى أقيم من أجلهما .. عليك لعنتهما !

فى اللحظة نفسها سقطت كوثر ممددة على الأرض وصرخة من ثريا التى انحنت عليها تهزها فى عنف :

— ماما .. ماما .. أفيقى !!

وابتسامة الانتصار على شفتى ألطاف ، والتشفى فى عينيها ، والزهو فى حاجبها الأيمن المرفوع ، فى حين صرخت الست عدالات :

— يا باتعة !!

أشارت ألطاف بطرف عينها اليسرى إلى غلامين من السود فتقدما لمساعدة كوثر على النهوض قبل أن تسترد وعيها تماما ! سارا بها إلى خارج الشقة وهى تجر قدمين من رصاص ، وثريا تمسك بها فى شغف وحرج شاعرة بالنظرات إليهما كسهام مشتعلة مسمومة دون أن تراها . خرجتا وفى لحظات عاد الغلامان وأغلقا الباب خلفهما . وقفت ألطاف على قمة مجدها الجديد وقد التفت الحاضرات حولها فى محاولة مبتهلة للتقرب منها ونوال البركة ! أما نظرات بنفسج فكانت زائغة حائرة مشحونة بالحقد على تلك الخادمة التى تتنقل من قمة إلى أخرى ببساطة النحلة التى تنتقل من زهرة إلى أخرى ، تمتص الرحيق وتلدغ من يحاول اعتراضها !

خرجت بنفسج من حيرتها على سهام ألطاف الصامتة تأمرها بالبدء . عادت الدقات إلى عنفوانها مع نفس الأناشيد التى سمعتها الحاضرات من قبل . وظلت الدوامة تموج بالحاضرات بين قطرات العرق ، وتمايل الأجساد ، وإيقاع الصنوج ، ودقات الدفوف ، وتكاثف البخور ، واهتزاز الشموع ، ونواح الناى ، وصوت بنفسج المتدفق الهادر بشمع الليالى ، وسيد العيلة ، وسلطان الجان ، واللولى والمرجان ، ورئيسة الديوان ، والفل والريحان ، وحملة العيان ، والوعد والمكتوب ، وحبل الشقا الممدود ، والقلم الفضة والحبر الزعفران ، والسلطان العجبان وأخته أم الغلام !

وظلت الدوامة تفور وتمور ، تعلو وتهبط إلى أن أخذت الأسطى ألطاف نوال من يدها حول الكرسى المنصوب لتجلسها على مقعد أمامه وسط المجلس ، فى حين جلست الحاضرات على السجادة التى تغطى

أرض الصالة حول المائدة . اختفت ألطاف فى المطبخ ثم عادت بديك ودجاجتين وربطت أرجلها بحبل دقيق أخرجته من جيب ردائها الأبيض ، ثم وضعت الديك على رأس نوال والدجاجتين على كتفيها ، وهى تنشد بصوت عال ومعها بنفسج والجوقة على دقة الست الكبيرة :

ــ والله يانى على ماما على ماما من اليمن جينا .. جينا على الصفين زى الهوا جينا .. وجيبنا بخور العود لماما والرب أهو موجود .. رب العباد موجود يستر ويرضينا .. لما رمانى الشوق على ماما صمنا وصلينا لابسين حرير أخضر .. ما ورد ورقينا .. قادوا الشموع لماما .. كراسينا ونصبوها !

وامتزج هدير الأناشيد والدفوف والصنوج بصياح الدجاج المنتفض خوفا ورعبا لولا إمساك الكودية ومساعداتها بتلابيبه ، وجميع الجالسات يمسحن وجوههن صائحات مبتهلات متضرعات :

ــ دستور يا أسياد .. نظرة يا أسيادى !

ثم أنزلت ألطاف الديك والدجاجتين لتعود بها إحدى مساعداتها إلى المطبخ . أخذت الكودية نوال من يدها إلى غرفة فتح بابها على المائدة المستديرة حيث نامت نوال ومعها الكودية على سرير وثير ، وغفت الحاضرات فى جلستهن على السجادة .

وفى تمام الساعة الثانية صباحا استيقظت ألطاف ونوال لبدء مراسم الحفل الذى سيجرى فى الفجر ، ولتنفيذ طلبات الأسياد الذين زاروا الكودية فى الرؤيا عند كشف الأثر . قامت ألطاف بذبح دجاجة ملونة بألوان مختلفة لجمعية الأسياد ، وديك أحمر للبواب ، ودجاجة بيضاء للست الكبيرة ، وأخرى سوداء للخادمة الحبشية ، حتى ترضى أكبر

وأخطر مجموعة من الأسياد . كذلك رأت ألطاف فى الرؤيا بالإضافة إلى هذه الطيور الأربعة ، نعجة للست الكبيرة ! فأبعد الطست الزاخر بالدجاج المذبوح ودمه الساخن ، ليتم إحضار طست آخر كبير ومعه نعجة قامت ألطاف بذبحها بنفسها ، بحيث تدفق دمها فى الطست ، فأمرت نوال بأن تشرب من الدم وتدهن به ساقيها وذراعيها وبطنها وصدرها وعنقها وخديها . ترددت نوال للحظات لكنها سرعان ما تجرعت كوب الدم التى قدمتها إليها ألطاف ثم انهالت على أعضاء جسدها تلطخها بما تبقى من دماء فى الطست .

وبمجرد الانتهاء من هذه الطقوس تقدمت ألطاف نوال بالدف وفى أعقابها بنفسج والجوقة التى التفت حولها بالإنشاد ودق الدفوف والصنوج ، وقد تلطخ جسدها ورداؤها الأبيض بحمرة الدم القانى ، وهى تزهو أمام الجميع بصفتها عروس الحفل التى لن تزف هذه المرة إلى زوجها وإنما إلى من هم أعلى مقاما وأخطر شأنا وأعمق سراً .. إلى الأسياد !

جلست ألطاف على أحد المقعدين المواجهين للمائدة المستديرة . ثم أجلست نوال على الآخر ثم انتظمت بنفسج والجوقة حولهما على السجادة وكذلك الحاضرات . دار الغلمان السود بالقهوة على الجميع فى فترة راحة لم تزد على نصف ساعة بعدها شرعت بنفسج والجوقة فى إعداد الدفوف والطبول ، وسرعان ما نهضت ألطاف ونوال وحولهما الجميع مع الدقات التى عادت بأعنف مما سبق مع الإنشاد الذى ينادى سلطان الجن الأحمر والست الكبيرة وياور بك وركوشة هانم وأم الغلام وسلطان البحر وابنته سفينة !

فى تلك الأثناء دخل الغلمان السود بكبش مزين بالزهور وهم يحملون طستا آخر وملاءة بيضاء . وكانت الزهور والورود حول رأس الكبش من نفس نوع أكاليل الورد المحيطة بالقاعة ، ونفس نوع النقوش على جدرانها . شد الغلمان السود الملاءة على شكل خيمة صغيرة دخلت تحتها ألطاف ونوال والكبش . دخل قصاب ضخم الجثة واختفى تحت الملاءة أيضا . انطلق أنين الكبش الذبيح واهتزت الملاءة فى عنف مع بقع الدماء التى تناثرت أسفلها كنافورة ساخنة ، وألطاف تصيح : دستور يا أسياد .. نظرة يا أسيادى ، وتردد الحاضرات نفس النداء بابتهال وخضوع ، فقد كان بعض الأسياد حاضرين تحت الملاءة التى أحضرت خصيصا لهذا السبب !

انكشفت الملاءة عن كبش مضرج فى دمائه داخل الطست ، والقصاب يغادر القاعة بسكينه التى تومض تحت الدماء المتساقطة منها ، فى حين عادت ألطاف ونوال الملطخة بالمزيد من الدماء إلى المائدة المستديرة حيث جعلتها ألطاف تركع منكسة الرأس إلى الأرض ، وسهام الغيرة تنطلق بوميضها الشرس من عينى عدالات فى جلستها فى ركن قصى . انتظمت الحاضرات مرة أخرى حولهما ، وتحول الإنشاد والدق إلى هدير يصم الآذان حول الراكعة :

ـــ شيخ محضر .. يا شيخ محضر .. اللى عليه عفريت يحضر !! دستور يا أسياد .. نظرة يا أسيادى ! شيء لله يا أسيادى !!

وتكرر الإنشاد والدق الهادر مع تمايل الأجساد والظلال والشموع فى حين جاء غلام أسود من الداخل يحمل لفافة ضخمة أخرج منها عباءة حمراء موشاة بالقصب ، وطربوشا مكللا باللؤلؤ ، وسيفا وخنجرا من

فضة . لبست نوال العباءة الحمراء بمساعدة ألطاف التى وضعت الطربوش بمعرفتها على رأسها ، ثم قلدتها السيف والخنجر ودارت حولها مع بنفسج بالدفوف ، والجوقة تدق وتنفخ ، فى حين تمايلت نوال وسط الجمع العظيم ثم انتفضت صارخة :

ـــ السلام عليكم !

فسألتها ألطاف والشرر يتطاير من سواد عينيها :

ـــ أهلا وسهلا !

أجابت نوال بصوت أجش كصوت الكهول :

ـــ أنا .. كادو .. سلطان الجن الأحمر !

صمتت الدفوف وتلاشى الإنشاد مع سؤال ألطاف :

ـــ دستور !! ماذا تريد ؟!

ـــ كل طلباتى التى مرت بالأسطى ألطاف فى الرؤيا !! وإلا أصبتها بالعمى !!

ـــ دستور !! طلباتك كلها مجابة .. ذهب وفضة ونقود وذبائح .. اعطنا فرصة حتى الأسبوع القادم لتلبية كل المطلوب !

ـــ سماح هذه المرة من أجل خاطرك فقط !

صرخت ألطاف فمزقت نسيج السكون الرهيب :

ـــ الرضا والسماح يا أسيادى ! شىء لله يا أسيادى !!

أصبح الصوت الأجش أجوف مثيرا للرهبة :

ـــ وأين دقة سلطان الجن الأحمر حتى أنصرف وأعفو عنها !

ـــ أمرك مطاع .. دستور يا أسيادى !

نظرت ألطاف إلى بنفسج التى قادت الجوقة على دقة السلطان فارتخى

جسد نوال وعادت إلى ركوعها منكسة الرأس إلى الأرض . أنهضتها ألطاف وسط الدقات والصيحات والصرخات والابتهالات ، فى حين فتح الغلام الأسود اللفافة وأخرج منها ملاءة من الحرير الهندى مشغولة أطرافها بالكنتير الفضى ، وحليا من الذهب الخالص ، وإكليلا من الفل والياسمين ، وعقدا من اللؤلؤ والمرجان . أمرت ألطاف نوال بخلع العباءة الحمراء والطربوش وترك السيف والخنجر ، فأطاعت . ساعدتها فى ارتداء الملاءة الحريرية ، والحلى فى ذراعيها وساقيها ، والعقد حول عنقها ، والإكليل على رأسها .

انتفضت نوال وتمايلت يمنة ويسرة ثم صاحت بصوت رفيع حاد كالسكين فى قلب النعجة :

ــ السلام عليكم !

سألتها ألطاف بعينين من وميض كنصل السكين :

ــ أهلا .. وسهلا !! دستور يا أسيادى !

أجابت نوال بصوت زادت حدته :

ــ أنا الست الكبيرة !

صمتت الدفوف وتلاشى الإنشاد مع سؤال ألطاف :

ــ دستور !! ماذا تريدين ؟!

ــ كل طلباتى التى أمرت بها فى رؤيا الأسطى ألطاف !! وإلا أصبتها بالكساح !!

ــ دستور !! طلباتك كلها مجابة على العين والراس .. الحلى والحرير الموشى بالقصب .. والحلل السبع المرصعة باللؤلؤ .. والطرحة ذات الأطراف الذهبية .. والخاتم الماسى .. وحجاب السر الباتع !

— سماح هذه المرة من أجل خاطرك فقط !

صرخت ألطاف كمن صعقت بمس كهربى :

— الرضا والسماح يا أسيادى ! طلباتك كلها مجابة قبل حلول الشهر القادم !

أصبح الصوت الحاد كسيف محمى فى النار :

— وأين دقة الست الكبيرة حتى أنصرف بسلام !

— أمرك مطاع .. دستور يا أسيادى !

قادت ألطاف الجوقة على دقة الست الكبيرة ، فارتخى جسد نوال وعادت إلى ركوعها منكسة الرأس إلى الأرض ، لكن تجسدت على وجهها هذه المرة خطوط من الارتياح العميق . أنهضتها ألطاف وسط الدقات والصيحات والصرخات والابتهالات التى بدأت تخفت ، فى حين كادت الغيرة أن تقتل الست عدالات كمداً . فقد ظلت عروسا لعشرين عاما ، ثم تأتى هذه الشاحبة النحيلة التى هبطت عليها الثروة فى غفلة من الزمن ، كى يتم زفافها إلى الأسياد ، فى حين أنها لا تصلح إلا لتزف إلى عزرائيل !

ساعدت ألطاف نوال فى خلع الملاءة ، والحلى ، والعقد ، والإكليل وإعادتها إلى اللفافة . ثم جلستا على المقعدين المواجهين للمائدة الصغيرة ، وانتحت الحاضرات الوسائد المتناثرة فى الأركان فوق السجادة الحمراء الكبيرة ، فى حين بدأ الإعداد للطعام !

شرعت ألطاف فى إعادة السيدات إلى وعيهن بنثر ماء الورد عليهن بادئة بنوال ، ثم طافت بالبخور حول الكرسى المنصوب ، وهى لا تزال تطلب من الأسياد السماح والرضا ، وتزيد من البخور كلما نقص .

وكانت الحاضرات غارقات فى عرقهن واسترخائهن وأنفاسهن التى بدأت تعود إلى الهدوء ، وخمود يسرى فى الأعضاء والعروق ، ونعاس خفيف يداعب بعض الجفون ، ونظرات إلى تحركات ألطاف تكاد تقبل يديها وقدميها وسرها الباتع الذى لا يستطيع أحد بعد الليلة أن يشكك فيه !

عادت ألطاف إلى مقعدها بجوار مريضتها التى شفيت بخروج الأسياد ، ولم تكن خيوط الفجر قد امتدت بعد . بدأ الغلمان السود فى توزيع إفطار خفيف على الحاضرات : حلوى مسكرة وكعك وملبن ولبن زبادى ولبن حليب وفواكه طازجة ومحفوظة ولحوم مقددة وخيار ومقدونس وجبن . انهمك بعضهن فى التهام الطعام ، فى حين استسلم البعض الآخر للإنهاك اللذيذ السارى فى أجسادهن ، وفى مقدمتهن نوال المنتشية بردائها الملطخ بالدماء القانية التى تجمدت وأصبحت قاتمة الآن ، وبمصوغات الزار ، والأحجبة والتمائم المعلقة فى أطراف طرحتها الشفافة ، والتى صنعتها لها الأسطى ألطاف خصيصا . وهى الحال التى ستظل عليها سبعة أيام ، دون أن تغتسل أو تخلع مصوغاتها أو تتخلى عن الأحجبة والتمائم وإلا غضب الأسياد عليها مرة أخرى وأصيبت بالأمراض التى برئت منها حالا !

دخل القصاب والطاهى واستأذنا الأسطى ألطاف فى القيام بتقطيع الذبائح حتى يبدأ العمل فى المطبخ . وقفت ألطاف منتصبة لتصدر أوامرها :

— ستقوم مريدتنا بتوزيع الذبائح بنفسها .. وإياك أن يمسها أحد قبلها !!

عاد القصاب والطاهى أدراجهما إلى المطبخ ، وفى أعقابهما ألطاف التى جذبت نوال من يدها فتبعتها فى نشوة مستسلمة ، وقلب الست عدالات يكاد يقفز من نظراتها فى غيرة متفجرة . ولم تعبأ ألطاف بأوامرها إلى القصاب أمام الحاضرات فى الصالة ، بل شرعت فى الحال فى توزيع الذبائح بنفسها ، بينها وبين نوال والقصاب الذى أخذ نصيبا ضئيلا أخذه راضيا شاكرا وانصرف ، ثم استولت ألطاف على نصف الكبش ونصف النعجة كاملين نظيفين ، ثم الرأسين والسيقان والفراء والقلبين والكبدين والعظام لدفنها فى المانيجة التى شرحت ألطاف معناها لنوال بأنها حجرة صغيرة فى بيت الكودية لدفن أجزاء الذبيحة التى لا تؤكل ، لحين تجمع أرواح الأسياد بها . وكانت نوال تصغى إليها تأدبا لمعرفتها بكل ما قالته !

أقيمت الموائد وقدم الطعام للجميع حول الكرسى المنصوب . وكان على نوال أن تأكل مع ألطاف من أحشاء الحيوانات والطيور ورءوسها بحيث يرسل ما تبقى منها مع السيقان والفراء والريش إلى المانيجة .

وبعد الانتهاء من هذه الوجبة الدسمة عند مطلع الفجر ، بدأت ألطاف توزيع ما على الكرسى من مكسرات وحلوى وفاكهة مسكرة على المدعوات فى أنصبة صغيرة ، ثم احتفظت لنفسها بالنصيب الأكبر منها ، والذى حمله أحد الغلمان السود إلى المطبخ .

جلست ألطاف على مقعدها مرة أخرى إلى جوار نوال التى شعرت بالمصوغات والخواتم المربوطة فى حزام حول وسطها تحت الرداء ، وهى تدغدغ بطنها وخصرها فتبعث فى جسدها إحساسا غامضا بالخدر . بدأت المدعوات فى الاستئذان والانصراف ، فانحنى بعضهن ليسلم على

الأسطى ألطاف بمنتهى الخشوع والخضوع ، فى حين اقتنص البعض الآخر قبلة على يدها ، وهى تباركهن بتلاوة تعاويذ غامضة بصوت خفيض . ومع تسلل المدعوات إلى الخارج ، تسللت خيوط الفجر ونسماته المنعشة إلى الداخل حيث احترقت الشموع وذابت ، وتلاشى دخان البخور وإن لم يرحل عبقه ، وذبلت أكاليل الورد وتدلت أعناقه مثل الرءوس الخاشعة المنتشية بليلة من ليالى العمر !

(٨)

جلست ثريا فى الشرفة المطلة على شارع القصر العينى مع أمها فى صمت ومتابعة لحركة السيارات المنطلقة جيئة وذهابا أسفل الشرفة . رفعت ثريا عينيها تجاه الشرفة المحاذية لها فلمحت حازما يبتسم لها فى منتهى العذوبة ، فبادلته الابتسام بابتسامة تشع ببريق عينيها الأخضر ، ووميض خصلاتها الذهبية . سرت النشوة فى مسام جلده فتمنى أن تدوم هذه الجلسة إلى الأبد . ملأ وجهها وجدانه فلم ير زحام الشارع أو يسمع ضجيجه .

استدارت الأم دون تفكير مسبق لترى ذلك الذى تبادله ابنتها الابتسام فوجدت ذلك المراهق المسكين الذى طالما عطفت عليه كابنها تماما . قالت لابنتها وهى تعود لجلستها مرة أخرى :

— أخشى أن يتعلق بك أكثر من اللازم .. فهو من النوع العاطفى الذى ترفعه كلمة إلى عنان السماء وتهبط به أخرى إلى سابع أرض !

أجابت ثريا وقد تحاشت النظر المتواصل إلى حازم :

— لا تنسى يا ماما أننى كنت أحمله وعمره سنتان !

— ولا تنسى أيضا أنك لم تتجاوزى فى ذلك الوقت العاشرة !

— إن ارتباطه بى هو ارتباط أخ بأخته الكبرى ! ولذلك كان أكثر الناس حزنا لما وقع بينك وبين الكودية ! كان كل خوفه أن يؤثر هذا الموقف على تردده علينا !

— عموما .. لن يتمكن من التردد علينا بعد عقد خطبتك إن شاء الله على رشيد !

رفعت ثريا عينيها فوجدته لا يزال يتأملها فى عذوبة ، كأنه يحاول أن يستبين من حركة شفتيها ما تقوله لأمها :

— رشيد ليس شابا تقليديا محدود الأفق .. ولذلك كان نضوجه العقلى والوجدانى السبب الأساسى فى قبولى له عندما عرض علىّ الزواج ببساطة متناهية !

— أخشى أن يكون قبولك له أسرع مما ينبغى .. كما كان رفضك للطابور الذى جاء قبله أطول مما يجب !

— رشيد ليس غريبا ! فقد كنت تلميذة له فى السنة الأولى والثانية عندما كان معيدا .. وكان اهتمامه بى واضحا .. كما لا أخفى عليك أننى كنت معجبة بعقله وتفكيره الناضج وأفقه الواسع .. لكنه سافر فى بعثته للدكتوراه .. وبمجرد أن عاد منها هذا الشهر .. سعد للغاية عندما وجدنى معيدة وزميلة له فى هيئة التدريس .. وعندما تبادلنا الأحاديث القديمة التى دارت بيننا .. وجدنا أنفسنا نتذكرها بكل تفاصيلها الدقيقة .. والأسبوع الماضى انتهز فرصة خلو غرفة الأساتذة .. وعبر بمنتهى البساطة عن إعجابه بعقليتى التى تختلف كثيرا عن معظم من هن فى سنى .. وعرض علىّ الزواج بنفس البساطة مؤكدا أن رفضى لن يؤثر إطلاقا على زمالتنا الوطيدة .. فلم أتمالك سوى أن أقول له إن بابا وماما يشرفهما أن يستقبلاه فى البيت . وعندما شعر بحرجى ترك لى تحديد الميعاد واستأذن وخرج !

استدارت الأم لتجد حازما لا يزال يملأ عينيه بابنتها :

— أفضل أن ندخل .. الولد لا يريد أن يرفع عينيه عنك !

— أتعرفين أنه انتقل إلى السنة الثالثة بتقدير جيد جدا !

— البركة فيك .. هيا ندخل لنستعد لاستقبال رشيد !

نهضتا وثريا تحيى حازما بابتسامة قبل أن تدخل ، لكنها لم تلحظ أن عذوبة نظرته قد تحولت إلى حزن دفين ، خاصة فى لحظة ظهور أبيه فى الشرفة ، وعيناه اللتان التقطتا جزءا من خصلاتها الذهبية وفستانها الأصفر ذى التماوجات الخضراء وهى تدلف فى أعقاب أمها ! وعندما تحولت العينان الحائرتان الناقمتان إلى ابنه ، أشاح الأخير بوجهه بعيدا متشاغلا بالسيارات المنطلقة فى الشارع والضجيج الذى يلفه .

فى الداخل وجدت ثريا أباها وقد استيقظ من نوم الظهيرة ، وارتدى ملابسه . كان يمشط شعره البلاتينى أمام المرآة التى وقف أمامها بقامته الطويلة ، وقوامه الرشيق فى حلته الخفيفة التى تحاكى لون السماء الصافية . رآها فى المرآة تقف خلفه مبتسمة :

— على فكرة .. إذا أطال الدكتور رشيد من جلسته .. فسوف أستأذن .. فأنت تعرفين مدى التزامى بمواعيدى مع المترددين على العيادة !

أجابت وهى لا تزال تتأمل وجهها المشع فى المرآة :

— لم أخف هذا على رشيد !! فضحك وقال إنها زيارة عمل هذه المرة !

— يبدو أنه لا يعانى من أية عقد أو حساسيات لا لزوم لها !

— ستشعر من أول لقاء أنه واحد منا ... فكرا وسلوكا !

استدار ليربت على خدها فى حنان دافق :

— أين ماما ؟!

ــ ذهبت إلى الصالون لتضع اللمسات الأخيرة !

احتواها تحت ذراعه وذهب بها إلى الصالون الذهبى الأنيق حيث كانت الأم تزيل بعض الأتربة العالقة على تماثيل صينية دقيقة لامعة تمثل كيوبيد إله الحب وهو يصيب بسهمه قلب أمير وسيم ساحر من العصور الخوالى ، فى جلسته تحت شرفة فتاة فى عمر الورود وتشبه ثريا إلى حد كبير !

جلس الأب على الأريكة الكبيرة وإلى جواره ثريا ، فى حين فتحت الأم الباب الزجاجى المطل على شرفة أخرى ثم جلست على مقعد صغير بالقرب منه وهى تنظر فى ساعتها الذهبية الدقيقة :

ــ باقى من الزمن خمس دقائق ! هذا إذا كان دقيقا فى مواعيده !

ابتسم الأب ابتسامة كشفت عن التشابه بينه وبين ابنته :

ــ ألا تنوين حضور حفل آخر للزار ؟!

لم تبتسم الأم للدعابة التى حرص زوجها على تكرارها فى الأيام الأخيرة :

ــ أرجوك .. لا تذكرنى بتلك الليلة الكريهة !!

واصل الأب دعابته المرحة :

ــ لقد حرمت ثريا من أهم مراجعها الدراسية !

ــ إنها حرة فى حضور ما تشاء من حفلاتها !

تدخلت ثريا فى الحوار متسائلة :

ــ وكيف أجرؤ على حضور حفلات نوال مرة أخرى .. بعد أن أهنت الكودية فى بيتها ؟!

أجابت الأم وقد فقدت روح الدعابة تماما :

— لا تتوقعى أبدا أن أعتذر لهذه المعتوهة !

واصلت ثريا الحوار :

— لقد منحت الكودية مجدا لم تكن تحلم به !! لابد أن المدعوات اعتقدن أن إغماءك كانت نتيجة لغضب الأسياد عليك ؟!

كانت الأم على وشك أن تفتح فمها لكن الأب التقط الخيط :

— عليك أنت يا ثريا بالاعتذار .. حتى تحصلى على أكبر مادة ممكنة لرسالتك ؟!

— كيف ؟!

— أبداً .. الموضوع فى منتهى البساطة .. يمكنك استخدام حازم فى التمهيد لإعادة المياه إلى مجاريها !!

— إن هذا الموضوع بالذات يسبب حيرة بالغة لحازم .. فقد سألنى مرارا عن السر فى إصرارى على حضور الحفل الذى يتنافى تماما مع عملى وعقلى .. فأجبته فى كل مرة أنه حب استطلاع لا غير !! لكن حساسيته المرهفة منعته من الاقتناع الكامل وإن لم يفصح !

استأنف الأب عرض اقتراحاته :

— بل ويمكنك أيضا أن تزورى الكودية نفسها فى بيتها لتعتذرى عما بدر من أمك .. بل ولتؤكدى لها أن غضب الأسياد لم ينقطع عنا منذ تلك الليلة الرهيبة !

نظرت الأم إلى زوجها فى عتاب رقيق :

— أتعلم ابنتك الكذب ؟!

ضحك الأب ضحكة منطلقة صافية :

— أتنكرين أنك أصبت بحالة من الكآبة استمرت معك أكثر من

أسبوع ؟!

أشاحت بوجهها بعيدا فى حين قالت ثريا :

— إنها فكرة جديرة بالتخطيط وإن كانت فى حاجة إلى الجرأة !

ومض الإصرار فى عينى الأب الخضراوين :

— إن الجرأة والإمساك بزمام المبادرة من أهم أسلحة المشتغلين بعلم النفس !

دق جرس الباب الموسيقى . نهضت ثريا لفتحه فى حين قال الأب لزوجته وهو ينظر فى ساعته :

— جاء فى ميعاده تماما .. وهذه ظاهرة صحية !

دخلت ثريا وخلفها رشيد الذى قدمته :

— الدكتور رشيد !

ثم اشارت بابتسامة مشربة ببعض الحمرة إلى أبيها وأمها :

— بابا !! ماما !!

امتدت الأيدى للمصافحة وتبادل السلام والتحيات ثم أشار الأب إلى مقعد فى الصدارة قائلا له :

— تفضل يا دكتور رشيد .. أهلا وسهلا !

جلسوا فساد الصمت للحظات . تأملته الأم بعينين متفحصتين ممزوجتين بشبح ابتسامة . إنه ليس فى وسامة من تقدموا لطلب يد ثريا قبله . لم يخفف وجوده فى انجلترا لأربع سنوات متصلة من سمرته . شعره خشن ، لم يهتم كثيرا بتشذيبه . يضع على عينيه نظارة تدل على طول نظره . يرتدى حلة خفيفة تقترب من لونها من الحلل العسكرية ! ترك قميصه الزيتى تحتها مفتوح العنق بلا رباط . لكنه طويل القامة ورشيق

القوام مثل زوجها ، وإن كانت شفتاه غليظتين مثل شفاه الغجر . قطع الأب حبال الصمت :

ــ هذه فرصة سعيدة يا دكتور رشيد !

خرج صوته جهوريا رصينا بنبرات واضحة هادئة :

ــ إننى يا دكتور أكثر سعادة بالشرف الذى نلته اليوم !

سعد الأب برقته ودبلوماسيته :

ــ علمنا أنك قمت بتدريس ثريا فى السنة الأولى والثانية !

أخرج من جيبه محفظة جلدية صغيرة فتحها وأخرج كيسا من التبغ وغليونا :

ــ كانت من أنبغ تلاميذى .. كانت مناقشاتها أعلى من مستوى سنها بكثير .. لدرجة أننى لا أزال أتذكرها حتى الآن !

لم تشأ الأم أن تلزم الصمت أكثر من هذا :

ــ ابن الوز عوام !

حياها رشيد بضحكة رقيقة عابرة فى حين لاحظه الأب وهو يشعل غليونه بتبغه المعطر :

ــ هل تدخن الغليون منذ فترة طويلة ؟!

أدرك رشيد أن الأب وضعه على مقعد الامتحان منذ أول لحظة :

ــ إنها عادة سيئة أجبرنى الإنجليز على ممارستها !

ابتسم الأب متسائلا فى إعجاب :

ــ كيف ؟!

ــ كمصرى وجدت نفسى أعانى من وحدة قاتلة مع بداية حياتى هناك .. ظننت فى أول الأمر أن الإنجليز يتجنبونى لأننى غريب قادم من

دولة طالما حاربتهم حتى حصلت على استقلالها .. لكننى بمرور الأيام اكتشفت أن الإنجليز أنفسهم يتجنبون بعضهم بعضا .. لا أحد يزور أو يخاطب أحدا .. وإذا حدث فكلها لقاءات عابرة وحديث عن الطقس أو العمل !! أما فيما عدا ذلك فهم يقضون وقت فراغهم فى متابعة التليفزيون أو قراءة الصحف أو التدخين !! كل هذا فى صمت قاتل مثل سكون شوارعهم بعد الخامسة مساء !

ازداد إعجاب الأب بقوة ملاحظته ودقة تحليله :

ــ وطبعا لم تجد لعبة تشاركك وحدتك سوى الغليون !!

ابتسم رشيد لتجاوب الأب معه :

ــ خاصة وأنه يحتاج إلى تنظيف وتسليك مستمر ! لكن على كل حال .. فإننى لاحظت أن استخدامى له قد قل كثيرا بعد عودتى إلى مصر .. ويبدو أن دفء الجو والناس سيجعلنى أتخلص منه فى النهاية .. إنه مجرد عادة .. لا أكثر ولا أقل !

نهضت الأم وفتحت علبة الشيكولاتة الذهبية الموسيقية الموضوعة على المنضدة الرخامية الصغيرة وقدمت منها لرشيد فتناول قطعة شاكرا ، ثم دارت بها على الأب والابنة . وضع رشيد القطعة فى جيبه وواصل تدخين غليونه الذى أحبت ثريا رائحة عطره . جلست الأم قائلة لرشيد :

ــ كنت أود أن تقابل ابنى وابنتى الأخرى .. لكنهما فى الخارج فابنى يدرى الإلكترونات فى الولايات المتحدة .. وابنتى تدرس الباليه فى الاتحاد السوفيتى !

ــ كلمتنى ثريا عنهما !! وفقهما الله ليعودا بكل ما يتمنياه !

سعدت الأم بألفاظه العذبة فى حين قرر الأب أن يحسم الموضوع وهو ينظر من طرف خفى إلى ساعة يده :

ــ وماذا عن استعدادك للحياة الزوجية ؟!

أطلق رشيد نفسا طويلا عميقا من غليونه :

ــ حصلت على شقة من الشقق المخصصة لهيئات التدريس فى الجامعة .. ولن يستغرق تجهيزها فترة طويلة ! كذلك فقد عدت من إنجلترا بسيارة جديدة !

شعر الأب بأن رشيدا يسبقه متطوعا بكل الإجابات على الأسئلة المحتملة حتى يوفر عليه مشقة الاسترسال فيها :

ــ وهل فكرت مع ثريا فى تحديد ميعاد الخطبة ؟!

ــ لم ولن نفكر فى أى شىء إلا معكما !

ــ لابد أن يكون القرار قراركما .. فهى حياتكما أولا وأخيرا !

تخلى رشيد عن كل أقنعة الدبلوماسية :

ــ خير البر عاجله !

ــ وهو كذلك !

قالها الأب ونهض مستأذنا ناظرا فى ساعته :

ــ آسف .. لن أستطيع الاستمتاع بالجلسة أكثر من هذا .. لا أحتمل ترك مرضاى ينتظرون !

انتفض رشيد ومعه ثريا وأمها وقوفا ، لكن الأب ضغط على كتفه محاولا إعادته إلى مقعده :

ــ لا ترتبط بى .. فالبيت بيتك .. واصل جلستك وناقش كل التفاصيل على مهلك .. عن إذنكم !

لم يترك الأب فرصة لرشيد سوى أن يقول له وهو مسرع إلى باب الشقة :

— هذا شرف كبير يا دكتور .. مع السلامة !

أغلق الأب الباب خلفه فى رقة سعيدا بهذا الشاب الذى تربع فى قلبه من أول وهلة . كان واثقا أن ابنته لن تختار أى زوج ! إنها ابنته وهو أدرى بها !

هبط فى المصعد حتى الجاراج الذى خرج منه بسيارته فى حين كان حازم لا يزال قابعا فى شرفته وعيناه معلقتان بشرفتها . لمح سيارة أبيها تنطلق لكنه لم يعرف إذا كانت فى صحبته أو لا تزال فى شقتها ؟! عادت عيناه للتعلق بشرفتها !

(٩)

كره بسيم حياته وهو يراها تتسلل من بين أصابعه كالماء ، أو تنجرف مع طوفان نوال الذى أوشك أن يكتسح فى طريقه كل ما بناه أبوها ، وكل ما دفع أباه إلى تزويجه منها بصرف النظر عن إرادته الشخصية ، فهى على أية حال لم يكن لها وجود حقيقى ! وها هى الدوائر تدور كى يفقد فى النهاية ما أضاع حياته كلها من أجله ! هل كتب عليه أن يحصد الهشيم نتيجة لما فعله بتلك المسكينة فى تلك الليلة المشئومة ؟! إنه لا يعرف إذا كانت حية أو ميتة ؟! وهل يمكن أن يكون قد تسبب فى موتها ؟! كم عذبه ذلك الإحساس الممض بالذنب ؟! والآن يذكره الانهيار المقبل عليه بتلك البؤرة القديمة التى لا تزال تنضح بالقيح والعفن !

لم يتوقف الأمر عند حدود الورشة التى أوشكت على غلق أبوابها نتيجة لهروب الأسطوات الكبار منها ، بعضهم إلى دول البترول والبعض الآخر إلى ورش الانفتاح ذات الآلات الحديثة والأجور العالية ، بل جرف الطوفان صحته أيضا . إذ استيقظ ذات صباح على دقات قلبه وقد فقدت انتظامها ، وعندما عاده الطبيب وأجرى له رسما كهربيا أمره بالتزام الفراش عشرة أيام قبل أن يعوده مرة أخرى ، مع تناول الأقراص التى كتبها له ! وعندما كشف عليه للمرة الثانية كانت الضربات قد انتظمت لكنه اشتكى من دوار وجفاف فى اللعاب ، فطلب منه تحليلا للدم والبول ، وظهرت النتيجة تعلن إصابته بالسكر !

وبدأ نظاما غذائيا قاسيا أدى إلى هبوط كرشه . وحاول أن يستغل إصابته بالسكر فى الحصول على زمام المبادرة فى الورشة كى يديرها كما يرى ، متعللا بأن احتكاكه بالعمال وتدهور العمل وعجزه عن التحكم فى مجريات الأمور يمكن أن يؤدى إلى الإفلاس بالإضافة إلى المرض ! لكن ذهوله كان ساحقا عندما وجد زوجته تؤكد له بمنتهى البرود والبساطة والبلاهة أن غضب الأسياد كان السبب فى كل ما جرى له ، خاصة وأنه تكلم عنهم بسخرية عندما اضطر إلى ترك البيت مع حازم ليناما ليلتى الزار فى شقة أبيه بالمنيل ! فى تلك اللحظة تأكد بسيم أن نهايته ستكون على يدى تلك المعتوهة إذا استمر فى التعامل معها بهذا الأسلوب ، وهى التى ظن أبوه أن سعادته واستقراره ورفاهيته ستكون على يديها ! آه لو أدرك هذه الحقيقة وهو فى عنفوان شبابه وصحته ؟! أم أنه كان يدركها ويتعامى عنها ؟! هل كان فى إمكانه أن يفك هذا القيد الذهبى الذى أحاط به أبوه يديه والذى تحول مع الأيام إلى قيد حديدى اختفى تماما تحت طبقات من الصدأ ؟! أصبح لا يدرى من أمره شيئا !! حتى الإجابات الصريحة تراوغه أو هو يراوغها ؟! لا يعرف ! إذ يبدو أن زمن مواجهة الحقائق والتصرف على أساسها قد ولى ، أو أنه لم يأت أصلا ولن يأتى !

ما الذى يجرى فى هذه الدنيا الغريبة ؟! حتى ثريا التى تتشدق بالعلم هى وأمها ، تحضر الحفل بدعوى حب الاستطلاع فى حين تسقط أمها مغشيا عليها فيزداد خوف الحاضرات من غضب الأسياد وشوقهن المحرق للحصول على بركتهم ورضاهم وسماحهم ! وهى القصة التى تندرت بها زوجته عشرات المرات أمام الجميع ، مؤكدة سر الأسطى ألطاف

الباتع ! وكان قد سعد فى أول الأمر ببوادر الوقيعة بين زوجته وأمه بعد الحفل الأخير ، ظنا منه أن أمه قد زهدت أخيرا فى الزار ، ويمكن أن تنتقل عدواها إلى زوجته ، لكن خيبة أمله المتجددة دوما أكدت له أن الوقيعة نتيجة لغيرة أمه القاتلة من نوال التى بدا من تصرفاتها أنها تنوى الاستئثار بكل حفلات الزار القادمة فى شقتها !

كم تمنى أن ينزل الله بصاعقة على تلك الكودية الكريهة ؟! لكن حتى الأمانى التى عاش فى ضوء سرابها ، وأسعدته برغم ثقته من أنها لن تتحقق ، قد فقدت قدرتها على خلق عالم الوهم الجميل ! هل يمكن أن يطلقها ويبدأ حياته من جديد مهما تكن النتائج ؟ أم أن عليه انتظار قدره وليكن ما يكون ؟! أمام هذه الأسئلة يكاد عقله يصاب بالشلل ، كما أصيب دمه بالسكر وقلبه بالاضطراب !

كذلك عجز عن احتواء ابنه المشتت الضائع اللاهث وراء الأوهام ، بل عجز عن مجرد الاقتراب منه ! صحيح أنه انتقل إلى السنة التالية بتفوق ، لكنه يعيش على وهم هذه الجارة الجميلة . وربما كان يتمنى الزواج منها برغم فارق السن بينهما ! واضح أنه يتعبد فى محرابها ليل نهار ، نتيجة لتجاوبها معه ورعايتها له ! لكن ماذا يمكن أن يحدث لو سئمته ، أو دخل حياتها حبيب أو خطيب شغلها عنه ؟! إنها لا يمكن أن تتعلق بمراهق مثل حازم دون أمل محدد ! فهى فتاة تعرف وقع أقدامها تماما قبل أن تخطو خطوة واحدة !

كاد عقله أن ينفجر فى جلسته فى غرفته الزجاجية داخل الورشة برغم أن ضجيج الآلات قد خف كثيرا بعد توقف أكثر من نصفها نتيجة لهروب العمال أو لعطل ليس له قطع غيار . جاء الساعى ليخرجه من

الأسئلة والإحباطات التى تكاد تخنقه :

— بالخارج سيدة تدعى بنفسج تطلب مقابلتك !

ارتعش جفنه الأيسر فى تساؤل عفوى :

— مقابلتى أنا ؟!

— نعم !

— ألم تقل ماذا تريد ؟!

— كل ما قالته إنها تعرف أسرة حضرتك منذ زمن بعيد !

تأكدت شكوك بسيم عندما نطق الساعى باسمها . إنها بنفسج المنشدة التى طالما جاءت فى صباها مع الأسطى ريحانة ، ثم عملت فيما بعد مع الأسطى ألطاف كما علم من زوجته ! شعر بإثارة غامضة تجتاحه من أصابع قدميه حتى سيطرت على صلعته التى فقدت لمعانها كثيرا فى الأيام الأخيرة ! هل أرسلتها ألطاف إليه ؟! ربما أخبرتها نوال بخوفه من عواقب هذه الحفلات ؟! أم أنها جاءت من تلقاء نفسها ؟! ولماذا لم تأت لزيارته فى البيت ؟! وكيف عرفت مقر عمله ؟! إنه ليس سرا على أية حال ! ربما أرادت أن تخبره بشىء فى غيبة نوال ؟!

— ماذا أقول لها ؟!

خرج بسيم من ضرب أخماسه فى أسداسه على تساؤل الساعى الذى أجاب عليه بنفس العفوية :

— دعها تدخل !

اختفى الساعى وبعد لحظات دخلت امرأة تناهز الستين ، لكنها تبدو أقل من هذا بكثير . تتدفق الحيوية من مشيتها ووجهها المحاط بشعر طويل مصبوغ بالحناء ، وجسدها الممشوق الملفوف فى رداء بنفسجى لامع

بعض الشىء ، وعينيها العسليتين النافذتين ، وحاجبيها الرفيعين الدقيقين . مدت يدها بالسلام فنهض بسيم محييا مرحبا وأجلسها أمام مكتبه :

— هل تتذكرنى ؟!

— أنت المنشدة بنفسج ؟!

— حضرتك تتمتع بذاكرة قوية !

لم تخفف المروحة الكهربية ذات الضجيج من عرق الإثارة تحت إبطيه ، ومن رطوبة الغرفة الزجاجية الخانقة :

— تحت أمرك !! .

— العفو يافندم !!

ثم ترددت قليلا فى بحثها عن مدخل مناسب للموضوع الذى جاءت من أجله ، فى حين تركزت عيناه الحائرتان على شفتيها :

— فى الحقيقة .. الموضوع الذى أتيت من أجله موضوع قديم جدا .. وكان يجب علىّ أن أوضحه لحضرتك منذ زمن بعيد .. لكن كل شىء بأوانه .. ويبدو أن الأوان قد آن أخيرا !!

علت ضربات قلبه فخشى أن يصيبها الاضطراب مرة أخرى :

— لا داعى لهذه المقدمات ؟! أنا على استعداد لسماع كل شىء !

اتكأت بمرفقها على حافة المكتب :

— الموضوع خاص بجمالات التى عملت فى خدمتكم منذ عشرين عاما !

لم يستوعب بسيم الاسم ، وإن امتصه وجدانه تماما :

— تقولين .. من ؟!

— جمالات التى طردت من بيتكم لأسباب لا نعلمها .. وإن كانت قد ادعت أنك أردت الزواج منها .. فطاش صواب أبيك وظل يسبها ويضربها ليلة بطولها بتهمة أنها هى التى أوحت إليك بالفكرة لأنه كان يخطط لتزويجك من الست نوال !!

هل يفتح الماضى بابه المخيف على مصراعيه بهذا الشكل المفاجىء المذهل ؟! بحث بسيم عن سؤال أو تعقيب يسد به الهوة التى فتحت بالقرب من قدميه لكنه عجز . استأنفت بنفسج بثقة أكبر :

— ثم ادعت أن الهوان الذى لقيته على يدى أبيك ذكرها بما لقيته على يدى زوجها فى قرية أبى الغيط .. والذى لم يخلصها منه سوى سقوطه تحت أسنان النورج التى قطعت جسده إربا ! ولا يعقل أن يلقى بها أبوها فى القاهرة ليواصل الآخرون إذلالها وتعذيبها لذنوب لم ترتكبها ، فما هكذا يكون رد الجميل !

رقص قلبه طربا عندما تأكد أن جمالات لم تفش السر القديم . استعاد رباطة جأشه متسائلا :

— وكيف قابلت جمالات وعرفت منها كل هذه الادعاءات ؟!

— يبدو أن حضرتك لم تعلم عنها شيئا منذ طردها من بيتكم .. جمالات هى الكودية ألطاف التى يخطب الجميع ودها الآن !

هل يمكن أن يعود الماضى الميت إلى الحياة كأقوى ما تكون الحياة ؟! صحيح أن أمه لاحظت التشابه بين جمالات وألطاف عندما رأتها لأول مرة ، لكنها هى نفسها استبعدت أن تكون الاثنتان شخصية واحدة !! لابد أن ما تقوم به ألطاف مع نوال ليس مجرد حفلات زار وإنما هو الانتقام بعينه ! حتى أمه عبرت عن دهشتها من الفروق الشاسعة فى

التكاليف والأجور بين الأسطى ريحانة والأسطى ألطاف ! رأسه يكاد يتفجر لكن عليه أن يصل إلى قاع هذه المرأة الغامضة !

— ألا تصدقنى ؟!

انتزعه سؤال بنفسج من بين أمواج العرق والقلق والحيرة :

— أبداً .. لكن لماذا لم تقصى هذه القصة المثيرة على زوجتى ؟! لعلها تعرف ألطاف على حقيقتها ؟!

— زرتها منذ يومين فكانت على وشك طردى . وكنت أعلم أن ورشة بسيونى للخراطة والميكانيكا فى وكالة البلح فقلت أشد الرحال إليك حتى أفضح حقيقتها لمن أكلت من خيرهم والآن تحاول استنزافهم !

— يبدو أن ثقة زوجتى بالأسطى ألطاف ثقة مطلقة ؟!

استرخت بنفسج فى مقعدها وهى تتابع من خلف الجدار الزجاجى الشرر الذى يتطاير من بعض آلات الورشة :

— اتهمتنى زوجتك بخيانة ألطاف .. وحذرتنى من غضب الأسياد !

ألقى بسيم السؤال الذى كان يتحرق شوقا إليه :

— لكن ما مصلحتك فى كل هذا وأنت تعملين معها ؟!

اتكأت بمرفقها مرة أخرى على المكتب ولملمت ذيل ثوبها :

— لك الحق فى هذا السؤال .. فقد فاض بى الكيل وأنا أراها بطول عشرين عاما تستولى بالتدريج على عقل الأسطى ريحانة ثم على قلب ابنها كافور ثم على ثروتها واسمها وزبائنها .. وأخرج أنا من المولد بلا حمص بعد أن أفنيت عمرى فى خدمة الأسطى ريحانة وكنت آمل أن أخلفها ..

فكثير من المنشدات تحولن إلى كوديات .. لكن هذه العقرب وقفت فى طريقى .. وعندما عرضت عليها منح فرصة العمل لابنتى سوسن معها .. رفضت بمنتهى الصفاقة .. تلتهم الخير كله وتمنع عن الناس مجرد الفتات !

أصبح صوت بنفسج فى كلماتها الأخيرة مرتعشا أجوف لكنه لم يخل من صرامة . مسح بسيم عرق صلعته وجبهته وعنقه بمنديل أبيض مدسوس بين أوراق المكتب :

ــ ألا تخافين أن يصل اليها خبر وشايتك بها .. فتطردك من العمل ؟!

ــ الرزق بيد الله .. كما أننى على وشك التقاعد بعد أن ألحقت ابنتى سوسن بالعمل عند كودية الدرب الأحمر .. وإن كانت تعد فقيرة بالمقارنة بألطاف !!

تراجعت الإثارة كى تتربع الحيرة على قلب بسيم مرة أخرى :

ــ وماذا تريدين منى أن أفعل ؟!

اندهشت بنفسج لحيرة الأطفال المتراقصة فى عينيه :

ــ ليس لى أن أقول لك هذا يا سعادة البك ! كل ما أردته أن تعرفوا حقيقة الكودية التى تستنزف أموالكم ! فى حين أننى على استعداد أن أقيم لكم نفس الحفلات بأقل من نصف التكاليف والأجور التى تحصل عليها ألطاف ؟!

إذاً .. فالعملية كلها تجارة رابحة ليست لها علاقة بالأسياد الذين يبدو أنهم مجرد أوهام :

ــ يبدو أنه فى إمكان أى إنسان أن يصبح كودية .. فالأمر ليس فيه ما نظن من الأسرار والطقوس والتعاويذ والتمائم !!

أشاحت بنفسج بوجهها بعيدا تجاه الشرر المتطاير من الآلات :

— هذا هو سر المهنة الذى لا يمكن أن أبوح به .. وإلا تعرضت لبطش الأسياد !

ثم شدت عنق ردائها وبصقت فيه :

— دستور يا أسيادى .. السماح والرضا يا أسيادى !

لم يجد بسيم كلمات يملأ بها فراغ الضجيج الصامت سوى :

— وهل تنوين أن تتركيها قريبا ؟!

— الفكرة موجودة .. لكننى لم أحدد ميعادا لتنفيذها بعد !

— ربما استعنت بك قريبا !!

ومضت عيناها العسليتان فيما يشبه التشفى :

— وأنا تحت أمرك !

— أرجو أن يكون ما دار بيننا سرا ؟!

— كنت على وشك أن أرجوك نفس الرجاء !

قال كمن يحدث نفسه :

— لا يمكن أن أترك الأمور تجرى فى أعنتها هكذا ! لابد أن أفعل شيئا !

تقلصت أصابع يدها اليمنى على خدها :

— وأنا خادمتك يا سعادة البك !

نهضت وقد شعرت بأن هامتها قد زادت طولا :

— عن إذنك .. لن أضيع من وقتك أكثر من هذا .. وسأكون على اتصال بحضرتك حتى أنفذ أوامرك !

نهض بسيم وقد عجز عن إخفاء حيرته :

ــ لم تشربى شيئا بعد !

ضغطت على يده بالسلام الحار :

ــ لست ضيفة !! يكفينى هذا اللقاء !

تركت يده وغادرت الغرفة الزجاجية بكلمات السلام والانتصار :

ــ السلام عليكم !

لم يرد بسيم بل ظل واقفا ذاهلا ثم جلس دون تفكير . فى بدء اللقاء عندما بلغه السر المذهل شعر بنشوة الانتصار لأن الأوان قد آن أخيرا لضرب الكودية فى مقتل ! لكن بمرور اللحظات المثيرة عاوده الإحساس القديم بالهزيمة المستمرة والإحباط المتجدد ! إن حقيقته أبشع من حقيقة ألطاف ! فليس هناك ما تخجل منه ! فالارتقاء من حياة الخادمة إلى قمة الكودية ليس عاراً ! إنه مجد بكل مقاييس المهارة والذكاء بل العبقرية ! أما حياته هو فيمكن أن تتلاشى بمجرد أن تعرف زوجته سره مع جمالات أو ألطاف ! لا .. إنه ليس سلاحا ذا حدين .. بل بحد واحد .. وفى يد ألطاف التى يمكن أن تقطع به عنقه فى أية لحظة تشاء !!

رأسه يكاد ينفجر ! كيف يحصل على هذا الكم المخيف من الأسرار والمعلومات المذهلة دون أن يستطيع أن يطعن به غريمته ؟! إنها تتصرف بمنتهى الثقة فى النفس والتحدى له لإدراكها أن السر الذى يبدو أنها لا تزال تحتفظ به ، يشكل خطورة عليه أبشع من خطورته عليها ! إنها — على أسوأ الفروض — ستطلق من زوجها ، لكنها ستظل الكودية الشهيرة الثرية التى يخطب الجميع ودها . أما هو فلو فقد حياته الزوجية فإنه سيفقد حياته كلها !!

الله يلعنك يا بنفسج !! كلماتك جعلتنى كالمستجير بالنار من الرمضاء !!

(١٠)

كانت شمس أغسطس قد تراجعت بلهيبها حتى الأفق فى عصر ذلك اليوم الخانق برطوبته حينما اخترقت السيارة الزرقاء الصغيرة الشوارع الخلفية لشارع القصر العينى حتى استوت منطلقة بحذاء كورنيش النيل . لم تكن حركة المرور مزدحمة وإن أعاقتها الإشارات الحمراء ، لكن الحديث العذب السلس المرح لم ينقطع داخلها :

— إنها مهمة مثيرة مثلما يحدث فى الأفلام البوليسية !!

قالتها ثريا بابتسامتها العذبة التى أدمنها رشيد الذى أمتع عينيه بمسح جسدها الرقيق المثير داخل بنطلونها الجينز الضيق ، وبلوزتها الحمراء المحبوسة داخله ، وخصلاتها الذهبية التى طالت قليلا :

— الحياة بدون إثارة لا طعم ولا معنى لها !

انطلقت السيارة مع الإشارة الخضراء وكلمات ثريا :

— لاحظت تطابقا شبه تام بين آرائك وآراء بابا !

انطلق ضاحكا فاهتزت النظارة على أرنبة أنفه :

— أخشى أن تكون موافقتك على الزواج منى ناتجة عن إصابتك بعقدة الكترا ؟!

شاركته الضحك وهى تزيح بعض خصلات مراوغة على عـينها اليمنى :

— بعد أن انتهيت فى الكلية من دراسة كل العقد النفسية اكتشفت

أننى مصابة بمعظمها !!

تحولت ضحكته إلى صخب مرح :

— الحمد لله .. فكل الذين يظنون أنهم محصنون ضد الإصابة بهذه العقد هم أكثر الناس إصابة فعلية بها !

كست الجدية عينيها الخضراوين المتسائلتين :

— لم أكن أتصور أن حماسك لدراستى عن الزار سيفوق حماس بابا لها ؟!

— تعلمت فى إنجلترا أنه إذا كانت القواعد النظرية العامة للعلوم الطبيعية والإنسانية مشتركة بين كل الشعوب . فإن تطبيقاتها تختلف من بقعة إلى أخرى اختلاف بصمات الأصابع ! وهذه هى المهمة الملقاة على عاتق علماء كل بلد على حدة !

ابتسمت وهى تخرج منديلا معطرا تمسح به جبينها :

— شكرا على ترقيتى من درجة معيدة إلى مرتبة عالمة بهذه البساطة !

— ليس للتفوق العلمى علاقة بالسن !

كان سور مجرى العيون على يسار السيارة المنطلقة إلى كوبرى الملك الصالح :

— هل تعتقد أنها ستقبل اعتذارى ببساطة وسترحب بى فى حفلات مدام نوال بعد كل ما صدر من ماما ضدها ؟!

انحرفت السيارة يمينا مخترقة الكوبرى :

— لابد أن تثبتى أن دهاء العلم أقوى من دهاء الجهل .. كما أنه لم يصدر منك أى شىء بصفة شخصية .. ولست مسئولة عن تصرفات أمك !! وعليك أيضا أن تتذرعى بالحجة التى ابتكرها أبوك .. فألطاف

يهمها .. ولو فى عقلها الباطن .. أن تتأكد من سيطرة أسيادها على الجميع .. حتى لو لم تكن مؤمنة بها هى نفسها !

ـــ كل ما أريده أن أحضر الإجراءات الكاملة لحفل واحد .. فأنا لم أسجل سوى ما شاهدته حتى فقدت ماما أعصابها !! وإن كان ما تبقى ليس سوى النهاية واللمسات الأخيرة للحفل طبقا لمعلوماتى النظرية !

توقفت السيارة فى إشارة مرور ميدان الروضة :

ـــ الزار مادة خصبة لتحليلات علم النفس .. فالنساء اللاتى يحضرن الزار يعتقدن أنهن يعانين من بعض الأمراض .. أو أنهن سيصبن بالمرض إذا لم يقمن بعمل معين يجنبهن الإصابة .. بل إن كل واحدة منهن حالة فى حد ذاتها تستحق التحليل والدراسة .. برغم اشتراكهن جميعا فى الاستجابة الهستيرية سواء بالتعلم أو بالتقليد !

ـــ بالإضافة إلى وجود القلق طبعا !

ـــ طبعا !!

انطلقت السيارة مع الإشارة الخضراء :

ـــ والكودية تطلب من المدعوات نسيان متاعبهن طوال حفل الزار حتى يستفدن منه .. وإذا كانت المرأة فى حالة انفعالية شديدة فإن الحفل يساعدها على التخلص من القلق .. وكثيرا ما يحدث فى حالة الشعور بالإثم أن تعتقد النساء أن الأسياد هى المسئولة عن متاعبها فتشفى بعد الزار شفاء مؤقتا !

ابتسم رشيد وهو ينطلق بالسيارة بحذاء النيل :

ـــ ستكون رسالتك للماجستير متعة لا حدود لها !

واصلت ثريا تحليلها بنفس الجدية :

— وكذلك تلجأ نساء الزار إلى الإيحاء كوسيلة للهروب من الواقع وذلك بدخولهن فى حالة من الغيبوبة أو الإغماء .. وكما تعلم فقد أثبت علماء النفس أن الإيحاء الجماعى أقوى أثرا من الإيحاء الفردى .. وفى حالة انتشار الجهل بين الموحى إليهم أو إليهن .. فلا يوجد أى مجال للتفكير أو التحليل أو النقد .. وبذلك تصبح عملية الإيحاء أسهل !

أبطأت السيارة من سيرها حتى توقفت بحذاء الطوار المقابل لڤيلا الأسطى ألطاف . دقق رشيد ببصره خلف نظارته :

— ها هى الڤيلا الصفراء رقم ١٣ !

دق قلب ثريا دقات سريعة متتابعة فى حين أخرج رشيد من درج السيارة غليونه :

— سأنتظرك هنا .. لا تحملى همى .. فإننى مغرم بمشاهدة غروب الشمس على صفحة النيل !!

كانت الشمس المختفية لا تزال تصبغ الموجات المتراقصة فى رقة ببريقها الذهبى الذاهب ، فى حين فتحت ثريا الباب وأخرجت ساقها اليمنى :

— ألم تعدنى بالامتناع عن التدخين بعد أن أدمنتنى ؟!

ابتسم رشيد مربتا على وجنتها فى رقة :

— لم أعد أدخن إلا فى الحالات التى لا أنشغل فيها بعمل ما .. وهى حالات .. كما تعلمين .. نادرة ! لكننى سأمتنع عنه تماما فى القريب العاجل برغم أنك تحبين رائحته المعطرة !

كانت ابتسامتها مزيجا من العتاب والدلال والعذوبة :

— لا تقلق .. لن أتأخر .. فهى زيارة عمل !

هبطت من السيارة وأغلقت الباب فى رقة . عبرت الشارع ورشيد يتابع خطوتها الرشيقة الحالمة فى بنطلونها الضيق وبلوزتها الحمراء المحبوسة داخله وخصلاتها الذهبية التى تماوجت مع بعض هبات من النسيم عابثة . اختفت ثريا داخل الڤيلا . صعدت على درجات السلم الرخامى ثم ضغطت على الجرس . فتح الباب وأطلت بنفسج بوجهها المحاط بشعرها الطويل المصبوغ بالحناء ، وعينيها العسليتين النافذتين ، وحاجبيها الرفيعين الدقيقين :

ــ تفضلى .. الأسطى فى انتظارك !

قادتها فوق سلم حلزونى ودقات قلبها تتتابع فوق كل درجة حتى دخلت خلفها غرفة أنيقة مكيفة الهواء تطل على النيل ، ومعطرة ببقايا رائحة بخور نفاذة ! نهضت ألطاف بردائها الأبيض الطويل شبه الشفاف ومدت يدها بالسلام مرحبة :

ــ أهلا وسهلا .. خطوة عزيزة !

ــ أهلا بك يا فندم !

أجلستها إلى جوارها فى حين كانت بنفسج لا تزال فى وقفتها الفاحصة عند الباب . قذفتها ألطاف بكلمات مفاجئة :

ــ لست فى حاجة إليك اليوم .. يمكنك الانصراف إلى بيتك للاستعداد لحفل الغد !

ــ وهو كذلك !!

قالتها بنفسج فى اقتضاب واختفت فى لمح البصر . لم تدر ثريا ماذا تقول فلزمت الصمت الذى قطعته ألطاف بسؤال كالسيف :

ــ هل أنت متزوجة أم مطلقة ؟!

ذهلت ثريا لكنها تماسكت متذكرة كلام رشيد عن دهاء الجهل ودهاء العلم . أجابت بسرعة محسوبة :

— لا هذا .. ولا ذاك .. لماذا ؟!

— من الذى أحضرك هنا ؟!

لمحت ثريا عبر زجاج النافذة الداكن سيارة رشيد الزرقاء وقد تركها ليجلس على السور الحجرى يتأمل الغروب ويدخن الغليون :

— إنه خطيبى !

— وبماذا يشتغل ؟!

إنها امرأة خطيرة بكل معانى الكلمة ! يجب أن تفكر قبل أية إجابة ! فليس هناك ما يجبرها على الاندفاع ثم السقوط فى براثنها :

— ألا تعلمين شيئا عن مهنته ؟!

خرجت كلمات ثريا حريصة هادئة محددة :

— إنه يعمل مع أبيه فى تجارة الخردة والخيش !!

— يبدو أنه لم يتخرج فى الجامعة ؟!

سعدت ثريا بالإجابة الضمنية التى قدمتها ألطاف دون أن تدرى ، فأكدت لها ما يدور فى عقلها الباطن :

— إنه يربح أضعاف أضعاف مرتبى من الجامعة .. ولذلك فأنا أفكر جديا فى ترك العمل لأتفرغ للبيت بعد الزواج !

استرخت ألطاف فى مقعدها الوثير :

— وهل يعرف من التى جئت من أجل زيارتها هنا ؟!

— إنه من أشد المؤمنين بالزار ورضا الأسياد !

هدأت دقات قلب ثريا واسترخت قليلا فى مقعدها ، لكن الأسئلة

تتابعت دون أية مهلة للتفكير المتأنى :

ـــ ولماذا لم يصلح التليفون لمناقشة الموضوع الذى جئت من أجله ؟!

ـــ لك الحق كل الحق فى أن ترفضى لقائى بعد الفضيحة التى بدرت من أمى والتى لا تزال تدفع ثمنها غاليا حتى الآن !

وقعت الكلمات على قلبها مثل قطرات ماء على أرض قاحلة :

ـــ هل هذا هو ما جئت من أجله ؟!

ـــ نعم !

ـــ لم يجبرها أحد على أن تفعل ما فعلته !!

ـــ ضحك الشيطان على عقلها ونجح فى الإيقاع بها !

بصقت ألطاف فجأة داخل فتحة ردائها الواسع الشفاف :

ـــ دستور يا أسيادى .. الرضا والسماح يا أسيادى !

اهتزت ثريا للحركة المفاجئة هزة أسعدت ألطاف التى ظنت أن ضيفتها أصبحت تحت سيطرتها تماما :

ـــ إذا كنت قد جئت للاعتذار فهذا أمر لا يهمنى فى كثير أو قليل .. المهم خوفى عليها من غضبهم الذى لابد من تجنبه !

ـــ كرم أخلاقك هذا يدفعنى إلى مصارحتك بأنها لم تعد كما كانت منذ تلك الليلة .. فقد انهارت أعصابها تماما وفقدت كل حيوية ونشاط ! بل وبدأت فى الإحساس بآلام فى المفاصل .. خاصة فى أصابع اليد !

أشاحت ألطاف بوجهها بعيدا وهى تتأمل رشيدا الذى عاد إلى الجلوس داخل سيارته :

ـــ هذا هو ما خشيته تماما !! عرضت نفسها لما قبل لها به !!

تأملت ثريا السجادة العجمية الفاخرة تحت قدميها وأخرجت كلماتها

بخنوع وذلة :

ـــ وما العمل الآن يا أسطى ؟!

ـــ العمل عمل ربنا !! لابد من رفع غضب الأسياد !

ـــ المصيبة أنها لا تزال تحت غواية الشيطان .. وتصر على عدم حضور حفلات الزار مرة أخرى !!

أزاحت نهرا متدفقا من شعرها الأسود الطويل اللامع خلف عنقها ثم ركزت عينيها السوداوين الواسعتين العميقتين على وجه ثريا الوردى الناضح ببعض بلورات العرق برغم الهواء المكيف :

ـــ فى هذه الحالة ليس لدى ما أفعله من أجلها ! ليس هناك هروب من المكتوب !!

قالتها ألطاف بصوت جهورى يفتعل الجلال والمهابة . قررت ثريا أن تلقى بآخر سهم فى جعبتها :

ـــ ربما لو حضرت أنا حفلات حضرتك .. فمن المحتمل أن أجذبها معى مرة أخرى لعلها تنول رضاهم وتنقشع عنا الغمة التى أحالت حياتنا جحيما !

امتزج إعجاب ثريا بنفسها بخوف دفين من إجابة ألطاف التى تأخرت قليلا على غير عادتها :

ـــ أهلا .. وسهلا بك يا حبيبتى !

رقص قلبها طربا واستمرأت لعبة الدهاء :

ـــ لا حرمنا الله منك ومن بركاتك .. فليس لنا سواك يقينا غضبهم ويجلب لنا رضاهم وسماحهم !

نهضت ثريا واقفة لتهرب بالفوز الكبير الذى اقتنصته من بين مخالبها :

— لن أضيع من وقتك أكثر من هذا .. فأنا أدرى بقيمته !

ظلت ألطاف على جلستها واضعة ساقا على ساق :

— لكن لم تقولى شيئا عما تدرسينه فى الجامعة ؟!

أسقط فى يدها عندما سقط عليها السؤال كالصاعقة :

— أقوم بتدريس علم النفس !

ندمت على الإجابة المتسرعة لكن ألطاف منحتها فرصة دون أن تدرى :

— علم ماذا ؟!

— إنه علم الأرواح !

عاود ألطاف الندم القديم لعدم تعلمها القراءة والكتابة ، لكن روح التحدى داخلها سرعان ما طردت الندم وفلوله :

— وماذا علمك هذا العلم ؟!

استعادت ثريا زمام المبادرة فى وقفتها أمامها :

— تعلمت من حفلك أضعاف أضعاف ما عرفت من هذا العلم !

صبت نظراتها على عينيها الخضراوين لعلها تستشف منهما أية مجاملة أو خداع ، لكنها استراحت لهذا الجمال البرىء الذى لا يمكن أن يحتوى على شكوكها ! مدت ألطاف يدها دون أن تنهض فشدت عليها ثريا باسمة سعيدة مستأذنة مسرعة إلى الخارج حيث احتوتها سيارة رشيد وألطاف تتابعها خلف زجاج النافذة الداكن بعينين كالصقر .

انطلقت السيارة العبقة ببقايا عطر الدخان فى حين دس رشيد الغليون فى درج السيارة . كانت سمرة الغروب تلف الكون بأرديتها الرمادية الشفافة ، والنيل يسير الهوينى فى صمته المهيب .

— هل نجحت فى الامتحان ؟!

— امتياز مع مرتبة الشرف الأولى !

— التنفيذ سار طبقا للخطة الموضوعة ؟!

— بالحرف الواحد !

توقفت السيارة بين طوابير السيارات عند الإشارة الحمراء :

— لولا السيارات المحيطة بنا لقبلتك قبلة طويلة عميقة !!

هزت سبابتها محذرة فى دلال :

— اياك أن تظن نفسك فى إنجلترا !!

جلجلت ضحكته المرحة المنطلقة مع السيارة :

— عندما أكون معك لا أدرى أين أنا بالضبط !

— على كل حال .. كلها عدة شهور قليلة .. بعدها أنتقل للحياة معك فى شقتك !!

— إننى فى انتظار هذه اللحظة كالمراهقين !

— لكن ماذا نفعل فى إصرار ماما على تأجيل الخطبة إلى أكتوبر بمجرد أن أرسل أخى بدر خطابا يخبرنا فيه بقدومه من أمريكا فى زيارة لمدة أسبوعين ؟!

— شهران لا يعتبران تأجيلا .. المهم أنك معى يوميا تقريبا !

— ما هذه الحكمة التى هبطت عليك فجأة ؟! ألم تقل أنك فى انتظار هذه اللحظة كالمراهقين ؟!

شاركها انطلاقها الضاحك :

— لم أقل لحظة الخطبة وإنما لحظة الزواج !!

ضربته فى دلال على كتفه واجتاحتها رغبة ساخنة بوضع رأسها

(الكودية)

عليها ، لكنها عدلت عنها . فقد أصبح السير فى شوارع القاهرة مثل قيادة سيارة كهربية فى مدينة الملاهى ، وكان رشيد يحاول جاهدا تفادى الأخطار المنطلقة يمنة ويسرة بعد أن اعتاد السير فى خط مستقيم لمدة أربع سنوات فى إنجلترا ، خاصة بعد أن ارتطمت سيارة أجرة بالباب الأيسر الخلفى لسيارته بعد خروجها من الجمرك بأسبوع واحد ، واضطر إلى قضاء ثلاثة أيام إلى جوار السمكرى والدهان حتى أعاد الباب إلى سيرته الأولى .

اخترقت السيارة شوارع جاردن سيتى حتى خرجت إلى شارع القصر العينى حيث وقفت أمام باب العمارة . ومضت خضرة عينيها الداكنة مع أضواء السيارات المنطلقة فى الجانب الأيسر من الشارع :

ـــ هيا أغلق السيارة واصعد معى !

ابتسم سعيدا بالدعوة :

ـــ لا أريد أن أثقل عليكم !

جذبته من ذراعه فى دلال :

ـــ كفاك ثقلا واصعد !

خرجت من السيارة وانتظرته على الطوار . خرج مسرعا سعيدا وأغلق الباب . فى تلك الأثناء كان حازم معسكرا كعادته فى الشهرين الأخيرين فى الشرفة لعله يملأ عينيه بنور وجهها بعد أن حرم منها بمجرد ظهور النتيجة ، ولم تعد لديه الحجة التقليدية فى التردد عليها أو ركوب عربتها فى طريقها إلى الجامعة أو العودة منها . وكان قد تذرع بأكثر من حجة فى الفترة الأخيرة للتردد عليها ورؤيتها ، لكنها لم تكن موجودة ، وكانت إجابات الأب والأم غامضة رقيقة ، وإن كان قد لمح عدم

الارتياح فى عينى الأم ، فأثر أن يعتكف فى الشرفة من حين لآخر لعله يظفر بلمحة أو نظرة أو ابتسامة !

لمح السيارة الزرقاء الصغيرة وثريا تخرج منها فقفز على أطراف أصابع قدميه وقلبه يكاد يقفز من على سور الشرفة . رأى رشيدا يدخل فى خفة وسعادة معها . سقط قلبه فى قاع قدميه . هل يعقل ما يراه ؟! من هو ؟! إنه ليس أخاها ، فهو يتذكر ملامحه جيدا ، ولو كان قد عاد من أمريكا لعلم بوصوله فى التو والحال !! قلبه يحدثه بخواطر مخيفة ومشاعر مرعبة ! ربما كان سيئ الظن فهى لم تخبره بأى احتمال من هذا القبيل ! هل يتصور أن تتخلى عنه بهذه البساطة وتسلبه النور الذى عاش على هديه ؟! لابد أن يقطع الشك باليقين !

جرى ليفتح باب الشقة لعله يفتعل لقاء بمحض الصدفة يعرف من خلاله هذا الغريب الغامض ، لكن الباب المقابل كان قد أغلق على ضحكات خلفه اخترقت قلبه كالرماح المسمومة ! لعن خواطره المترددة التى أضاعت منه الفرصة . أغلقه وعاد أدراجه فإذ بصوت أبيه من غرفة المكتب :

— لماذا فتحت الباب يا حازم ؟!

— أبداً .. ظننت أننى سمعت الجرس !

عاد إلى الشرفة التى بدت وكأنها تميد به ! لن تمر الليلة قبل أن يعرف من هو ؟! حتى لو ارتكب حماقة ندم عليها عمره كله ! لم يستطع الجلوس فانثنى على السور يكاد لا يرى حركة الشارع أو يسمع ضجته ! ظل يذرع الشرفة جيئة وذهابا حتى سطعت فى ذهنه فكرة أراحته قليلا ! سيظل مرابطا حتى مغادرة الغريب الغامض البيت وسيذهب إليها

ليعرف من هو حتى لو كان بعد منتصف الليل !! لكن لابد من اختراع حجة يتعلل بها !

أسرع إلى غرفته ليستبدل بيجامته بقميص وبنطلون حتى يستعد لما هو قادم عليه ! بانتهاء المهمة وعودته إلى الشرفة عثر على حجة معقولة : سيقول لها إنه لمح أخاها قادما معها فقرر أن يسلم عليه لأنه أوحشه كثيرا بعد هذه الغيبة الطويلة ! عندئذ سيجبرها على التصريح بهوية الغريب الغامض !

فكر فى اقتحام شقتها أثناء وجوده لكن قدميه لم تتحملا الانطلاق تحت وطأة الفكرة ! كان عليه أن ينتظر وقتا ثقيلا ممضا لا يقاس بالثوانى وإنما بدقات القلوب ونبضات العروق ! لم يحتمل حركة الناس المنطلقين فى الشارع بين السيارات المجنونة فدخل ليجلس فى الصالة حتى يرصد أى صوت يمكن أن يصدر عن الباب المقابل ، وفتح بين يديه رواية رومانسية كان قد بدأ قراءتها عصر اليوم حتى لا يسأله أبوه عن سر جلوسه فى الصالة وإضاءة الثريا الضخمة .

لكن أباه ظل فى مكتبه ، فى حين خرجت أمه من الحمام إلى غرفة نومها فى سكون ونشوة لا معنى لها ! دفن عينيه بين سطور رواية « آلام فيرتر » للشاعر الألمانى جيته ، مستمتعا بالحزن الدفين السارى بين سطورها برغم عدم تركيزه لتراقص الكلمات والسطور أمامه . رأى نفسه فى بطلها فيرتر بوجهه الشاحب الحزين ، وعندما تتبع بطلتها تشارلوت لم يجد مناصا من أن يرى فيها ثريا ، خاصة وأن التشابه بينهما فى الوجه والجسد كان شبه تام !

كان حازم فى الثلث الأخير من الرواية . وكثيرا ما دفعه نهمه للقراءة

إلى الاتيان على رواية طويلة فى يوم واحد . كثيرا ما ساءل نفسه : ماذا كان يمكن أن يفعل بنفسه وبوقته لو لم يمنحه الله متعة القراءاة ؟ تقدم بين سطور الرواية يطويها مستشعرا النهاية الرومانسية المأسوية لبطلها ، والتى أثارت داخله قلقا غامضا وخوفا دفينا ! هل يمكن أن يؤدى به تعاطفه مع فيرتر إلى أن يبلغ نهايته ؟!

لدغه خاطر العقرب فارتعش الكتاب بين أصابعه وتمردت أوراقه ! إن هذا الغريب الغامض يشبه الدكتور رشيد الذى عاد أخيرا من إنجلترا ويقوم بتدريس السنتين الثالثة والرابعة ! صحيح أنه لم ير سوى أعلى رأسه ثم ظهره قبل أن يدخل مع ثريا ، لكنه يبدو أن النظر من الشرفة وقت حلول الظلام يجعل الأشياء تبدو مختلفة تماما عن الواقع !! إنها فعلا عربته الزرقاء وإن بدت داكنة !

نهض لاهثا إلى الشرفة ليطل ويتأكد فتأكد ! بل تذكر أنه رأى هذه العربة مرتين أو أكثر فى المكان نفسه ! وتذكر أيضا أنها تبادلت معه بعض الأحاديث فى حديقة الكلية وممراتها و لم يعر الأمر التفاتا فى ذلك الحين . كان مشغولا بالتقدم إلى الامتحان كما أن ثريا شخصية محبوبة من أعضاء هيئة التدريس الذين لا يشبعون من طلاوة حديثها ! لكن الأمر يبدو مختلفا تماما هذه الليلة !

عاد إلى جلسته فى الصالة المضيئة بالثريا البلورية الكبيرة ألقى بالرواية على مقعد ركنى غير عابىء بقطرات العرق المنهمرة خلف أذنيه وعلى عنقه . الأمر أخطر مما تصور ! كان يمكن أن يضحك على نفسه ويعللها بأنه جاء لتصحيح أوراق الإجابة معها لو أن النتيجة لم تكن قد ظهرت بعد ! لكنها أعلنت منذ شهر ! هل يمكن أن يكون قد خطبها ؟!

لو تمت الخطبة لكان هو أول من علم !! هل يمكن أن ....؟! أستغفر الله العظيم . ليست ثريا هى التى تفعل هذا !

أحس بخلايا مخه على وشك الانفجار ! كان يتمنى أن يراها ولو للحظة ، فإذ بكيانه كله يتداعى عندما جاءته تلك اللحظة ! إنه لا يعرف ماذا يريد منها بالضبط ؟! لكنه لا يحتمل أن يستولى أى بشر على معبودته ! فهو ببساطة يسلبه حياته لأنه يعيش من أجلها ! ومع ذلك كيف سمحت لنفسها أن تتخلى عنه بهذه البساطة ؟! ألا تعرف أنه لولاها لكان قد رحل عن هذا العالم منذ زمن بعيد ؟!

أطفأ أبوه نور غرفة المكتب وإذ به يقف أمامه :

ــ غرفة المكتب أنسب للقراءة من هنا !

اهتز كيانه الهش على كلمات أبيه الذى أصبح جلده فضفاضا على جسمه فى الأيام الأخيرة :

ــ غرفة المكتب حارة أكثر من اللازم .. والرطوبة هذه الليلة خانقة !

ــ الشىء الوحيد الذى تحرص عليه أنك لا تطيع لى كلمة واحدة ولو على سبيل السهو والخطأ !

فكر عقله المشلول فى إجابة مناسبة لكن أباه وفَّر عليه هذه المشقة ودخل غرفة نومه فى هدوء . عاد حازم إلى التخبط بين لجج الحيرة والقلق والألم واليأس والمرارة ! هل يمكن أن يظل طوال الليل هكذا ؟! وماذا يفعلان بالداخل ؟! على أية حال فإن أمها موجودة على أقل تقدير !

تحول إلى آذان صاغية ترصد دبيب النملة على عتبة السلم ! سمع الباب

المقابل يفتح فهرع للنظر من ثقب المفتاح لكنه لم ير شيئا ! أرهف السمع فاصطدمت أذناه بهمسات وضحكات أعقبتها أصوات كالقبلات ! ارتعشت قدماه فى وقفته المنحنية وإذ بصوت المصعد يقف ويفتح وأصوات أخرى كالقبلات ثم يغلق ويهبط ويعقبه صوت إغلاق الباب المقابل !

دارت الصالة به ! تردد للحظات ! قرر أن يتصرف دون تفكير ! أى تفكير من شأنه أن يشل حركته تماما ! فتح الباب وصوت أبيه من الداخل يتساءل لكنه لم يعبأ ! كان الظلام يغمر السلم فلم يهتم بإضاءة النور ! ضغط على الزر الذى يعرف مكانه باللمس ! أضيئت الصالة وفتح الباب وإذ بمعبودة عمره تقف أمامه متسائلة فى ذهول :

— خيراً ؟! يا حازم !! ماذا فى الأمر ؟!

تلعثم لكن الكلمات تدفقت دون رابط :

— أبداً .. رأيت أخاك قادما فقلت أسلم عليه لأنه أوحشنى كثيرا !

ظنت ثريا أن مكروها أصابه :

— أخى من ؟! أخى بدر ؟! إنه لن يصل قبل أكتوبر القادم !!

تراجع خطوتين إلى الوراء :

— آسف .. لابد أن الأمور اختلطت علىّ !

اقتربت لتتبين ملامح وجهه الشاحب الحزين :

— متى رأيت أخى ؟!

أخيرا انداح الزلزال وفتح البركان فوهته :

— رأيته يدخل معك !

تداركت ثريا الأمر فحاولت أن تضفى عليه جوا من الدعابة

والمرح :

ــ آه .. إنه الدكتور رشيد الذى سيقوم بتدريسك فى العامين القادمين بإذن الله !

سادت لحظات من الصمت ، فهمت ثريا فيها معنى علامات الاستفهام والحيرة المتراقصة فى بريق عينيه الخابى وذقنه الذى لم يحلق منذ يومين أو ثلاثة :

ــ لقد خطبنى .. وسيعقد حفل الخطبة فى أكتوبر القادم بعد وصول بدر من أمريكا .. وستكون أنت ضيف الشرف بالطبع !

ابتسمت وقد اكتسى وجهها بحمرة طالما عشقها ! لم يدرك أبعاد ما كان يجرى ويقال ، لكنه شعر أنه انقسم إلى شخصين ، وإذ بالشخص الآخر يبتسم ويمد يده مهنئا :

ــ ألف مبروك .. ألف مبروك !!

شدت ثريا على يده فسرت حرارتها فى يده الباردة المخضبة بالعرق :

ــ عقبى لك يا حازم !

ــ ألف مبروك .. ألف مبروك .. تصبحين على خير !

كان الشخص الآخر يسلك مثلما يسلك كل الناس فى مثل هذه المواقف . لكن بمجرد عودته التحم الشخصان عندما اصطدم بأبيه المرابط خلف الباب !

ــ ماذا كنت تفعل عندها فى هذه اللحظة من الليل ؟!

ــ أبداً .. إنها جارتى وأستاذتى ومن حقى أن أكلمها فى أى وقت !

ــ أى موضوع ملح دفعك إليها فى مثل هذه الساعة ؟! لا تتصور أن جلوسك فى الصالة كان بسبب جوها المنعش .. فأنا لم أصل إلى هذه

الدرجة من الغفلة بعد ؟!

طفحت قمم المرارة على لسانه :

ـــ أليس هناك فى هذا البيت غيرى لتفرض عليه سلطتك ؟!

خفض من صوته وهو ينظر تجاه غرفة النوم :

ـــ لسانك الطويل لم ترثه عن غريب !

أفسح حازم لنفسه ثغرة نفذ منها :

ـــ عن إذنك !

ثم هرع إلى غرفة نومه ليغلقها على نفسه وسط ذهول أبيه وحيرته وقلقه عليه ! ارتمى على فراشه دون أن يغير قميصه وبنطلونه أو يخلع حذاءه ! ظل يتقلب على سرير أصبح قاربا بلا مجاديف أو دفة فى مواجهة العاصفة التى لابد أن تغرقه فى قاع لجحها . لم يخطر بباله فى أية لحظة من اللحظات أن يقع ما وقع برغم أنه لم يكن بعيد الاحتمال بأية حال من الأحوال ! كان سعيدا برفضها طابور الخطاب الذين جاءوا يتلمسون موافقتها لدرجة أن شيئا داخله أوحى إليه بخاطر سعيد جزل : إنها رفضتهم لأجله ! لكن يبدو أن الوهم الجميل هو الشيء الوحيد فى هذه الدنيا الذى لا حدود له ، حتى يفاجأ الإنسان بها وهى تطبق عليه من كل جانب حتى تكاد تحطم ضلوعه وتمنع الهواء عن رئتيه ! كم جلس إليها لتشرح له ما استغلق عليه من نظريات علم النفس واتجاهاته المتعددة فى التحليل ؟! كم عشق عطرها المفضل وكم استعادته أنفه فى غيابها ؟! كم أضاءت عيناها ظلام لياليه ؟! كم طبع كل لمحة وكل لفتة وكل حركة وكل ابتسامة وكل ومضة فى مخيلته التى أحالها إلى معمل لطبع كل صورها والاحتفاظ بها ملونة حية ؟!

كان يذاكر ويتفوق من أجلها ! إذ لا يعقل أن تدفعه إلى النجاح ثم يخذلها ! كان ملتقى حسد زملائه وغيرتهم ! فقد كانوا يتبارون هم أيضا فى الإعجاب بها والاقتراب من سحرها بقدر الإمكان ! كم حسدوا سعيد الحظ الذى سيفوز بها ؟! لكنه كان واثقا فى قرارة نفسه أنه لن يكونه وهم بدورهم لا يقصدونه ! برغم ركوبه السيارة الصغيرة الحبيبة إلى جوارها والتمتع بصحبتها ! كانت فى حياته أعلى من أى مستوى من مستويات البشر العاديين التقليديين ! لم يغفر لعينيه ذات مرة تسللهما إلى أعلى فخذيها عندما هبطت من عربتها فى فستان ضيق قصير ، فانفرجت ساقاها معلنتين عن قطعة من قماش أسود شبه شفاف ! اعتبر نفسه مجرما فى حقها لدرجة أن الحمرة اكتسحت شحوب وجهه !

ومرة أخرى تصادف وجود عائلتها فى الإسكندرية مع عائلته . وكان يحلو لها أن تسير على شاطىء المعمورة بطوله فى مايوه يضاهى خضرة عينيها . كانت العيون المتلصصة فى حياء أو المنطلقة فى صفاقة سهاما إلى قلبه وهو يسير معها ! كم تمنى أن يملك القدرة على أن يقول لها إنها أروع وأسمى من أن تلتهم العيون الفانية جسدها الرقيق الساحر المبهر !

ومرة ثالثة كاد أن يقتل نفسه كمدا وإحساسا بالذنب عندما حلم أنه يقبلها فى عنف وجنون ، وعندما استيقظ وجد ملابسه الداخلية مبتلة كالأطفال ! انتابته حالة من الغيثان لم يخفف منها سوى استحمامه واعتبار نفسه غير مسئول عما يدور فى عقله الباطن الذى كمن فى داخله شىء غامض زين له طلب الصفح والمغفرة منها ، لكنه لم يجرؤ على خطوة كهذه !

كانت أسعد لحظاته المتدفقة بالنشوة الصافية عندما يرى بريق عينيها

فى ضوء الشمس والسيارة تتهادى بهما بين حديقتى الأورمان والحيوان فى طريقهما إلى الجامعة ، أو عندما يلمح نور وجهها عندما تسطع عليه كشافات السيارات المقابلة فى طريق عودتهما ، أو وميض خصلاتها الذهبية قبل الغروب وهى جالسة فى شرفتها !

كانت الجانب المضىء المشرق فى حياته ، أما الجانب الآخر فلم يكن سوى التشتت والضياع واليأس والملل والإحباط : أم تعيش فى عالم مجنون كريه من خلق أوهامها وخزعبلاتها وجهلها ، وأب مغلوب على أمره لا يجد أحدا غيره ليفرض عليه سلطانه الضائع تحت أقدام زوجته !

تقلب فى الفراش أو تقلب الفراش به ! لم يدر ! امتزجت اليقظة بالمنام ! تلاشت الحدود بين أحلام اليقظة المضيئة وكوابيس الظلام الدامس ! زاره رشيد مبتسما لكنه هرب منه ليهوى من الشرفة ويحطم زجاج سيارته ! جلس فى رعب ثم غفا مرة أخرى ليسمع دقات الزار تسبق زفاف ثريا إلى رشيد الذى قادها إلى غرفة النوم ذات الأضواء الحمراء الخافتة وأغلق الباب خلفه بعد أن رمقه بنظرة ساخرة سعيدة . نهض فزعا فى فراشه الغارق فى بحار العرق ثم غفا مرة أخرى ليجد رشيدا يحاول اغتصابها وهى تستغيث به ! حاول إزاحته لكنه رفسه فى مكان حساس أصابه بما يشبه الغيبوبة التى لم تنحسر إلا مع خيوط الفجر وهى تتسلل من خصاص النافذة مع بعض أبواق السيارات المبكرة !

تبلور الإحساس الغامض الذى بدأ مع الصدمة إلى فكرة محددة بدت فى الأفق كثغرة وحيدة يمكنه النفاذ منها هربا من هذا الجحيم المستعر وقائلا لنفسه : بيدى لا بيد رشيد ! فكر فى أن يكتب إليها خطابا لكنه لم يشأ أن يعكر صفوها . يكفى أنه سيبرهن لها كم أحبها حتى العبادة !!

وكم يتمنى لها من السعادة قدرا أكبر وأعم من السعادة التى أسبغتها عليه !

ذهب إلى الحمام حيث حلق ذقنه بيد مرتعشة ثم غسل وجهه . خرج وهو يجففه فاصطدم بأبيه الذى سالت عيناه المغلفتان بحمرة الأرق وحنان الأبوة ، بينبوع من التوسل والاعتذار والتواصل :

ـــ صباح الخير يا حازم !

أجاب باقتضاب حزين :

ـــ صباح الخير يا بابا !

ـــ لا تؤاخذنى يا بنى ... إنه قلب الأب الذى لن تعرفه إلا عندما تنجب فى المستقبل بإذن الله !

ـــ العفو يا بابا .. أنا الذى كنت عصبيا أكثر من اللازم !

غمرته رغبة عارمة لتقبيله واحتضانه :

ـــ ولعل أعصابك تكون قد هدأت الآن ؟!

توقع الأب أن يعود عليه سؤاله بما يشفى غليل استطلاعه ، لكن ابنه انطلق إلى غرفته تاركا له كلماته المقتضبة :

ـــ الحمد لله !

لم يعرف الأب إذا كان قد ظل بملابسه طوال الليل ، أم أنه ارتداها فى الصباح الباكر على غير عادته . دعا الله فى قلبه كى يحافظ عليه من كل مكروه . وبمجرد تجهيز الإفطار دعاه ليجلس ثلاثتهم إلى المائدة ، حيث لم يرفع الأب عينيه عنه ، ولم يظفر منه بإجابة سوى أنه ارتدى ملابسه لأنه قرر التردد على النادى لممارسة الرياضة . وبرغم عدم اقتناع الأب تماما بالإجابة ، فإنها أثلجت صدره المشتعل قليلا وصرفت نظره عن الاستمرار فى الجدل !

هبط حازم على درجات السلم دون انتظار للمصعد . تنفس الصعداء وهو يسير على الطوار لا يعرف لنفسه جهة محددة . نظر إلى أعلى حيث شرفتها التى كانت مغلقة ! ابتسم فى حنان قاتل ثم قادته قدماه إلى كورنيش النيل فسار فى نفس الطريق الذى كثيرا ما طواه معها فى عربتها الحبيبة . وجد نفسه بين حديقة الأورمان على يمينه وحديقة الحيوان على يساره . دقت ساعة الجامعة دقاتها الجليلة تدعوه إلى الدخول فدخل . لم يكن هناك سوى بعض الطلبة والطالبات فى هرولة لقضاء بعض المهام ، لكن المكان الذى كثيرا ما ضاق بهم كان خاويا على عروشه . سار فى نفس الممرات داخل الكلية التى تركها إلى الحديقة مخترقا إياها إلى المكتبة . أخذ مرجعا وجلس فى مقعده المفضل لكن السطور تماوجت أمام عينيه . لم يحتمل خناجر الوحدة فغادر الجامعة إلى ميدان الأورمان حيث وجد صيدلية مفتوحة الأبواب فدخلها !

(١١)

ذرع بسيم غرفة مكتبه كحيوان حبيس فى قفص . كان قد عاد فى مغرب ذلك اليوم من الورشة وقد أيقن أنها لابد أن تغلق أبوابها تماما فى ظرف شهر على أكثر تقدير بعد أن تسرب منها العمال مثل الماء من بين أصابع الكف دون أن يملك ما يوقفهم . وها هى نوال لم تعد حتى الآن إلى البيت لانهماكها فى استعدادات الحفل الذى نصحت به الكودية حتى يرضى الأسياد عنهم وترجع الورشة إلى سابق عهدها ! إن جمالات تنتقم منه بطريقة لا تخطر ببال بشر !! لكن عليه أن يحسم أمره ، ولو مرة واحدة فى حياته ، خاصة وأن الورشة كانت الرابطة الأساسية بينه وبين زوجته ، وها هى على وشك الإفلاس والإغلاق !

أما ابنه فمنذ أن عاد إلى البيت وقد أغلق على نفسه باب غرفته ! إن قلقه عليه يكاد ينهش كبده ، لكن عليه أولا أن يحسم موضوع الورشة والزار ، ثم يتنبه لابنه ووحيده ! الورشة والزار جبلان شامخان وعران عليه أن يتسلقهما بمنتهى الإصرار والصمود والحرص حتى لا يجد جسده أشلاء متناثرة عند السفح ! هذه المرة يشعر أنه أكثر قدرة على قبول التحدى . فلم يعد هناك ما يخشى ضياعه بعد أن أوشكت الورشة على الضياع باستمرار زوجته فى طريقها وإصرارها عليه ! لم يعرف بسيم أن اليأس يمكن أن يمنح الإنسان طاقة هائلة لا تعبأ بأحاسيس الخوف المرتبطة بالحرص على الأمل أو بالسعى لتحقيقه.أصبح كل خوفه منصبا

على وحيده ، وعليه أن يحسم موقفه من جارته الجميلة ثريا ، وإلا جرفه التيار كما جرف نوال والورشة من قبل ! لن يظل مكتوف الأيدى حتى يجد حياته نفسها وهى تتسرب من بين أصابعه كما تسربت الورشة ! لم يعد هناك مجال للتردد والتراجع والاستسلام ! التحدى كبير وخطير لكن لا مفر من مواجهته !

سمع صوت المفتاح يدور فى ثقب الباب ، فدارت رأسه مع تصاعد دقات قلبه الذى دفعه إلى الوقوف بباب غرفة المكتب . فتح باب الشقة ودخلت نوال وعلى وجهها تلك النشوة الغامضة المقيتة ! أغلقت الباب خلفها وسارت تجاه غرفة نومها وهى تنظر إليه فى دهشة متسائلة :

— لماذا تحملق فىّ هكذا ؟!

ثم أحدثت بشفتيها صوتا كمص الليمون ودخلت غرفتها . غلى الدم فى شرايين مخه ، فخاف من اضطراب دقات قلبه وارتفاع ضغطه ، فدخل فى أعقابها حيث جلست على حافة الفراش تخلع حذاءها اللامع المضىء :

— لم أكن أحملق فيك .. وإنما كنت أحملق فى أحوالنا التى لم تعد تثير سوى الرثاء !

طارت النشوة من تلافيف مخها لهذه النغمة التى سمعتها لأول مرة :

— إياك والبطر ! فالنعمة التى أنت فيها يتمناها الكثيرون فى أحلامهم !

فاض به الكيل ، إذ كيف يسمح لنفسه أن تمن عليه هذه الشاحبة الكئيبة بهذا الأسلوب الذى لا يتأتى إلا لمحدثى النعمة :

— أنت التى رفست النعمة .. فلن تنفعك هذه الدجالة جمالات

عندما تغلق الورشة أبوابها فى ظرف شهر على أكثر تقدير !

انتفضت واقفة فتراجع دون تفكير إلى الباب :

ـــ يبدو أن أكذوبة بنفسج الحاقدة الغادرة قد لاقت هوى عندك ؟

ـــ لم تقل بنفسج سوى حقائق مؤكدة .. كانت ألطاف خادمة عندنا منذ عشرين عاما !

اتكأت بذراعها على اللوح الخشبى للسرير وهى تحك خصلاتها الناحلة بأصابع مرتعشة مشدودة لأول مرة :

ـــ ولنفرض أنها كانت خادمة عندكم !! يكفيها رضا الأسياد الذين رفعوها إلى هذه المكانة الرفيعة المرموقة !!

راودته نفسه بالانسحاب لكن هجمة عاتية داهمته . كان عليه أن يصمد لها وإلا فالانسحاب النهائى قدره هذه المرة ! ذهبت لتجلس على مقعدها الأثير أمام المرآة ووميض مخيف يشع من عينيها الخابيتين ذكره بذلك الوميض الذى شع منهما لمدة أسبوع أو أكثر فى أعقاب حفل الزار الأخير . استدارت لتداهمه بالسؤال :

ـــ وكيف تأتى لك أن تجزم أنها جمالات ؟! هل رأيتها ؟!

عاد إليه تردده القديم كأقوى ما يكون ! انحنى قليلا للعاصفة العاتية حتى يلم شتات أفكاره المتناثرة مع هباتها :

ـــ لم أرها ! وإنما بنفسج رأتها عندما كانت تتردد على بيتنا مع الأسطى ريحانة !

ـــ ولماذا صمتت بنفسج كل هذه المدة ؟! ولماذا رضيت لنفسها أن تعمل فى خدمة خادمة ؟!

استمر فى مقاومته المستميتة :

— بنفسج تُشكر على كل حال ! فقد عرفتنا بسر يهمنا تماما !

نهضت مرة أخرى لتقف فى مواجهته :

— ولماذا لا تراها حتى تقطع الشك باليقين ؟!

ها هى القشة التى قصمت ظهر البعير ! تداعى الماضى كله فى ذهنه كخليط مشوش مشتعل ! إن جمالات التى خططت كل هذا للانتقام منه لكفيلة بإفشاء السر وسحقه تماما ! وربما ادعت أن لها ابنا أو ابنة منه ! تراجع قليلا إلى الباب :

— لم أقل لك هذا إلا على سبيل النصيحة الخالصة لوجه الله . وأنت حرة تماما فى الأخذ بها أو إلقائها فى صندوق القمامة !

استراحت لتقهقره فعادت إلى مقعدها الأثير الوثير . فكر فى مغادرة الغرفة لكن فكرة طارئة أوقفته . فكرة كنيزك من الفضاء الخارجى أضاء مشتعلا بمجرد دخوله الغلاف الفكرى لمخه :

— وكيف جرؤت بنفسج على هذا الادعاء الكاذب دون خوف من غضب الأسياد وبطشهم ؟!

تلقت نوال الطعنة بصمود تحسد عليه :

— أحيانا يطول صبرهم لمنح البشر فرصة التوبة .. لكن صبرهم لن يطول إلى الأبد .. وسيجىء يوم ترى فيه بنفسج عبرة لمن يعتبر ! ولذلك لم أفاتح الأسطى ألطاف فى موضوع زيارتها لى ! وإن كنت قد لقنتها درسا فى الإخلاص والوفاء !

عاد ليواجهها فى جلستها برغم كل المخاطر المحتملة . فقد تأكد لأول مرة أنه نجح فى هز أعماقها :

— على كل حال فلم يكن هذا هو الموضوع الذى أردت فتحه

معك ! وإنما كنت أريد أن أناقش بصراحة وبلا لف أو دوران مستقبلنا ! فلم أعد أحتمل أن أرى الورشة تغلق تدريجيا أمام عينى وأنا أتفرج عليها لا أستطيع حيالها شيئا !!

علا صوتها لتكتسح البقية الباقية من صموده :

— أنت السبب فى كل الخراب الذى حل بالورشة !!

ود لو سحقها بقبضته ! لكن أين هى قوته البدنية بعد أن نهش الضغط والسكر جسده ؟ لم يطالب نفسه بالصمود والتحدى يوم كان جسده قادرا على مساندتها ! والآن عليه أن يتجرع الكأس حتى الثمالة :

— هل بلغت بك القدرة هذا الحد من قلب الحقائق رأسا على عقب ؟!

ارتعشت شفتها السفلى ونبراتها آخذة فى التصاعد :

— جحودك لفضلهم علينا وإنكارك لسرهم الباتع قد جرا علينا هذه المصائب التى تحاول أن تذكرنى بها ليل نهار !

شعر بساقيه ترتعشان تحته فجلس على حافة الفراش :

— لا داعى لارتفاع صوتك .. فلم أصب بالصمم بعد .. كما أن حازما فى غرفته ولا أحب أن ننشر غسيلنا القذر أمامه دائما !

اجتاحها الذهول . لم تعهد فيه من قبل مثل هـذا الإصرار على المواجهة :

— يبدو أن هذه الليلة لن تمر على خير !

استمرأ صموده وإحساسه بكرامته العائدة حتى لو دفع كل شيء ثمنا لها :

— إذا كان الأسياد غير راضين عنى .. فلابد أنهم راضون عنك وعن

كل ممتلكاتك وفى مقدمتها الورشة ؟!

هل بلغ به الأمر والتبجح والجحود درجة التعريض بهم وبها :

ــ ستدفع الثمن غاليا لإصرارك على إفساد كل ما أصلحه !

استمر فى حديثه متجاهلا كلماتها :

ــ كان من الممكن أن نرفع أجور العمال وحوافزهم ومكافآتهم .. وكان من الممكن أيضا تصليح الآلات المعطلة بقطع غيار جديدة أو حتى بإحلال آلات حديثة تماما من الأموال التى تبعثر يمنة ويسرة على الحفلات إياها !!

تساقطت قطرات الاشمئزاز من عينيها وهى تنظر فى المرآة :

ــ منذ متى كنت قادرا على حل أية مشكلة ؟! اترك لى الأمر برمته فأنا كفيلة بعلاجه بطريقتى الخاصة !!

أغرق لعابه المر لسانه فنهض حتى الباب :

ــ إنك لا تفكرين إلا فى نفسك وحفلاتك ! أما زوجك وابنك فلا وجود لهما فى حياتك ! إن حياتنا سويا لا يمكن أن تستمر بهذا الشكل !

قفزت من مكمنها لتلدغه بكلمات كالطلقات :

ــ أتهددنى بالطلاق على آخر الزمن بعد أن تقلبت كل هذا العمر الطويل فى خيرى وخير أبى ؟! هذا الخير الذى انحسر على يديك ؟!

ــ لن أخاف من علو صوتك !! يمكننى أن أبدأ من الصفر طالما أننى أملك كرامتى التى دست عليها هذا العمر الطويل الذى تتشدقين به !

وقعت كلماته الهادئة كقطرات سم على لسانها :

ــ كنت أشك دائما فى أنك تزوجتنى حبا فى سواد عينى .. لكن اليقين جاءنى للأسف فى مرحلة متأخرة جدا .. لأول مرة تتجـرأ

وتكلمنى عن الطلاق بهذه البساطة ! الطلاق الذى لم تكن تذكره .. مجرد ذكر .. لو كانت أحوال الورشة على ما يرام !

أدرك أخيرا أن قوة الإنسان الحقيقية هى الوجه الآخر لكرامته :

— سئمت الجدل العقيم معك .. لكننى سأمنحك فرصة لمراجعة حساباتك الخاطئة .. فإذا لم تثوبى لرشدك فلكل منا طريقه فى الحياة !

عادت إلى مقعدها بظهر للمرآة وساق يمنى مرتعشة :

— هل تكافئنى فى النهاية باتهامى بالجنون ؟! أكل هـذا بسبب بنفسج ؟!

أدرك أيضا أن السر الذى طالما أخفاه فى الماضى كان من أهم أسباب ضعفه وتردده وكرامته المهدرة على يدى نوال ثم ألطاف ! ومضت عيناه الخابيتان وعاد إلى صلعته بعض بريقها القديم . وضع ذراعه فى وسطه مستندا إلى الباب :

— بنفسج لم تقل سوى جزء من الحقيقة .. أما الحقيقة كلها فلا يعرفها سواى !

عادت السخرية المريرة لتغلف نبراتها بتساؤل وتكذيب مسبق :

— وما هذه الحقيقة التى لا يعرفها سواك ؟!

استمتع بالكلمات التى تأكد من خروجها منمقة واضحة :

— لم تكن ألطاف مجرد خادمة عندنا .. بل كانت قريبة لنا تنتمى إلى الفرع الريفى الفقير من عائلتنا فى قرية أبى الغيط .. وعندما جاءت لتعيش معنا .. صور لها غرورها أن فى إمكانها أن تتزوجنى .. واستغلت مراهقتى وطيشى واندفاعى إلى أن أوقعت بى فى حبائلها .. وعندما ادعت أمام أبى أننى اعتديت عليها .. طردها شر طردة فى ليلة باردة

مطيرة .. كانت ليلة رأس السنة على وجه التحديد .. وبعد ذلك اختفت من حياتى تماما .. إلى أن ذكرتنى بها بنفسج .. فلم أندهش .. فقد كانت تعرف الأسطى ريحانة أيام إقامتها لحفلات أمى !

ساد الصمت المتفجر الذى ذكرها بملاحظة أمه يوم ذهبت للتعزية فى وفاة الأسطى ريحانة ومقابلة ألطاف لأول مرة . لم تستطع أمه أن تخفى دهشتها من الشبه العجيب بل والتطابق بين جمالات وألطاف ، بل إن بنفسج قدمتها إليهما باسم جمالات ! وإن كانت ألطاف قد نهرتها لذكرها هذا الاسم !

ومع ذلك لم تحتمل نوال هذا الطوفان العاتى الذى جرف فى طريقه دعائم ذلك العالم المبهر الذى أدمنت نشوته ، فلم تجد أمامها سوى التكذيب الصارخ دون أن تعبأ بجسدها المنتفض أمامه لأول مرة :

ـــ كنت أظن أنك جاحد !! فتأكدت من أنك كاذب أيضا !! وأنا كفيلة بفضح أكاذيبك .. لابد أن تقابلها وجها لوجه حتى تعريك على حقيقتك أمام الجميع !!

كان بسيم على وشك مواصلة التصعيد ، لكنه لم يتخل عن حرصه القديم . فمن المحتمل ألا تكون جمالات ألطاف ! فهو لم يرها وإن كان قد بنى انتقامه الراهن على أقوال بنفسج :

ـــ بعد اليوم لم يعد فى مقدورك أن تجبرينى على فعل شىء لا أرغب فى فعله !!

ـــ إذاً .. يمكننى أن أضيف الجبن إلى جحودك وكذبك !

ـــ ثقى أننى لا أهتم برأيك فىّ على الإطلاق !

ـــ ولو كان ما جرى لها على يديك صحيحا .. فإنه لا يؤثر على

مكانتها فى قلبى .. بل يعلى منها درجات ودرجات .. ولولا رضا الأسياد عنها لما احتضنتها الأسطى ريحانة كابنتها تماما بـل وزوجتها ابنها ووحيدها !

ــ لا زلت تصرين على دفن رأسك فى الرمال .. لكننى لن أختنق معك !! فحياتى أغلى من أن أتركها فريسة سهلة بين يديك !!

ومضت عيناها فلم تعبأ بالإهانة :

ــ وما رأيك فى ثريا التى ذهبت إليها معتذرة مستغفرة كى تسامحها وتسمح لها بحضور حفلاتها مرة أخرى ؟! هل تدفن هى الأخرى رأسها فى الرمال ؟!

أشاح بوجهه بعيدا فى حزن دفين :

ــ لا يهمنى ما يفعله الآخرون ؟! كفانى ما فعلته هذه الثريا بابنى حازم الذى أصبح لعبتها المفضلة التى يمكن أن تتحطم بين أصابعها أو أية أصابع أخرى !!

ــ الحقد الأسود على كل الناس ينهش قلبك !! لم يتفوق ابنك فى دراسته إلا بفضلها !!

فجأة تذكر بسيم ابنه الذى لم يغادر غرفته منذ ساعات طويلة ، و لم تنم عنها أية حركة . بل ظلت مظلمة حتى وصول زوجته . خفق قلبه بشدة فوضع يده على صدره وانطلق إلى الصالة فوجد غرفة ابنه لا تزال غارقة فى الظلام ! هل يمكن أن يكون قد خرج دون أن يخبره ؟! ليس من عادته أن يتسلل هكذا ! أوشك قلبه أن يقفز من قفصه فهجم على الباب وفتحه . لم يتبين شيئا فأضاء الغرفة !

على السرير كان حازم ممددا بقميصه وبنطلونه دون حراك ! هجم

على ابنه يناديه ويهزه بعنف لكن حدقتى عينيه قتلتاه رعبا باتساعهما وتحجرهما . احتضنه صارخا فجاءت زوجته قافزة لتشد منه ابنها وتهزه بعنف أشد ونداء أعنف . لكن حازما تهاوى فى أحضانها كخرقة بالية . دون وعى أو تفكير قفز بسيم خارج الغرفة ، وفتح باب الشقة . لم يرفع يده عن زر الجرس إلا مع إضاءة النور وظهور وجه ثريا المذعورة مع الباب المفتوح . كاد قلبه أن يتوقف وهو يقول لها لاهثا :

ـــ النجدة يا دكتورة ثريا .. لا أعرف ماذا جرى لحازم ؟! عيناه مفتوحتان ولا يرد على صرخاتنا !!

فوجىء بها تقول له :

ـــ لحظة واحدة !

ثم اختفت للحظات كدهور عادت بعدها وفى صحبتها شاب أسمر خيل له أنه رآه من قبل . انطلق ثلاثتهم إلى غرفة حازم والشاب الأسمر يردد :

ـــ خيرا إن شاء الله .. خيرا إن شاء الله !

كانت الأم لا تزال تحتضنه وتناديه . أمسك رشيد برسغه فظنته الأم طبيبا . لهج لسانها متسائلا :

ـــ خيرا يا دكتور !

نظر رشيد لثريا قائلا بمنتهى الجدية :

ـــ لابد من نقله فورا إلى أقرب مستشفى !

أجاب الأب وعيناه على ابنه :

ـــ لا نعرف مستشفى على وجه التحديد !!

ـــ لا يوجد أقرب من القصر العينى !

— لا نعرف فيه أحداً !

— أخى طبيب هناك ! أرجو أن يكون هناك الآن !!

تدخلت الأم متسائلة دون تفكير :

— وسيادتك !! ألست طبيبا ؟!

جذب رشيد حازما حتى صلب له عوده بعد أن أحاطه بذراعيه :

— هيا .. ليس لدينا وقت لنضيعه !

أمسك رشيد بذراع حازم اليمنى التى شدها على كتفيه ، وأمسك بسيم باليسرى فاعلا نفس الشيء ! أسرعت ثريا إلى المصعد الذى فتحت بابه عندما توقف . دخلوا جميعا وسرعان ما هبط بهم والأم تردد كلمات مبهمة غامضة لم يتبين منها رشيد وثريا غير كلمتى « الرضا والسماح »!

سار رشيد وبسيم بحازم بمنتهى الحرص وهما يهبطان على درجات المدخل . أسرعت ثريا بأخذ مفتاح العربة التى كانت واقفة أمام المدخل . فتحتها لهم بحيث دخل بسيم أولا محتضنا ابنه وإلى جواره جلست نوال بعيون زائغة مترددة كبندول الساعة . وقف بعض المارة على الطوار يتابعون المشهد فى مزيج من الدهشة والبلاهة والشرود . جلس رشيد إلى عجلة القيادة وإلى جواره ثريا . لم يقطع لحظات الصمت الرهيب داخل العربة سوى صوت المحرك الذى دار وانطلقت بهم عبر شارع القصر العينى ، وإن كانت إشارات المرور قد تحالفت على تعطيلهم مع دموع الأم وخفقات الأب . قطع رشيد الصمت وكأنه يخاطب نفسه ناظرا إلى ساعة يده :

— أرجو أن يكون نزيه موجودا فى نوبته الآن !

انطلقت العربة منحرفة يمينا لتعبر كوبرى القصر العينى حتى المدخل

الخارجى للمستشفى الكبير . برز أحد الحراس الذى دس برأسه داخلها عندما توقفت :

— أى خدمة يا فندم ؟!

أجاب بلهجة رصينة وكلمات سريعة محددة :

— أنا الدكتور رشيد أخو الدكتور نزيه المصرى .. معى حالة عاجلة !

— لحظة واحدة من فضلك !

قالها واختفى داخل حجرة مضيئة على يسار البوابة الكبيرة ، فى حين توقفت نوال عن تمتمتها الغامضة وقالت متبرمة :

— الأمر ليس فى حاجة إلى أخذ ورد .. ادخل يا دكتور لمقابلة أخيك فورا !

التفت رشيد خلفه قائلا لها فى حنان دافق :

— أريد أن أتأكد من وجوده أولا !

— وإذا لم يكن موجودا ؟!

— هناك من يحل محله .. لكننى سأستدعيه ليأتى فورا !

لهجت الأم بكلمات مبحوحة و دموع جافة :

— لقد جاء !

دس الحارس وجهه مرة أخرى بابتسامة مطمئنة :

— تفضل .. الدكتور نزيه فى الاستقبال !

شكره رشيد وانطلق فى لحظات خاطفة صوب مبنى الاستقبال . هبط من العربة ومعه ثريا . خرجت الأم فأسرع رشيد بمساعدة بسيم فى الإمساك بحازم الذى كست وجهه غلالة صفراء من الشحوب المخيف

الذى قبع على شفتيه المطبقتين ، صعدا به على الدرجات القليلة . ترك بسيم قياده لرشيد شاعرا بأن الله قد أرسله فاستبشر خيرا برغم وطأة اللحظات المظلمة . رأتهم ممرضة شابة فتية فأسرعت بالإمساك بحازم وانضم إليها ممرض كهل . تركهم رشيد داخلا إحدى الغرف على الجانب الأيسر . غاب فيها لحظات ثم خرج ومعه طبيب شاب فى معطفه الأبيض . كان الشبه واضحا بينهما وإن كان رشيد أطول قليلا . أمر الطبيب الممرض والممرضة بإدخاله غرفة مجاورة ، وعندما حاول بسيم الدخول معهما منعه فى رقة بقوله :

ـــ أرجوك .. انتظر خارجا .. سيكون كل شىء على ما يرام إن شاء الله !

احتضنت ثريا نوال على مقعدين خشبيين بجوار الباب ، فى حين ظل بسيم يذرع الممر جيئة وذهابا أمام الباب المغلق . أما فى الغرفة فقد مدد حازم على مائدة بيضاء معدنية وشرع الدكتور نزيه فى الكشف عليه بالسماعة . ثم أخذ من صوان ركنى أبيض مجاور حقنة حقن بها ذراع حازم الذى شعر باختراقها للحمه فاهتز اهتزازة ارتاح لها الطبيب الذى نظر إلى أخيه هامسا :

ـــ إنها محاولة واضحة للانتحار .. لكن طالما أنه جار ثريا ويهمك أمره .. فإننى سأشخص الحالة على أنها تلبك معوى حاد استدعى إجراء غسيل له .. حتى لا يدخل هو وأسرته فى تعقيدات لا لزوم لها مع الشرطة .. وعليك بعد ذلك بعلاجه النفسى حتى يشعر بأن الحياة جديرة بأن تعاش حتى آخر لحظة فيها !

ابتسم رشيد فى حين كان الممرض والممرضة يجهزان الخراطيم والمحاليل

لإجراء الغسيل المعوى . لبس الطبيب قفازا من النايلون الأبيض قائلا لأخيه :

— اخرج لطمأنتهم عليه .. لن يمكث أكثر من ليلتين فى المستشفى !

اتسعت ابتسامة رشيد العذبة السعيدة وهو يفتح الباب ليخرج ويواجه ببسيم ونوال وثريا حوله بتساؤلات محمومة برغم ابتسامته الهادئة :

— كيف حاله ؟! ماذا جرى له ؟!

ربت على كتف بسيم الذى واصل جسمه انتفاضه من الداخل :

— الحمد لله .. إنه مجرد تلبك معوى حاد لن يستدعى سوى إجراء غسيل معوى له .. ولن يمكث فى المستشفى أكثر من ليلتين !

لهج لسان بسيم بالتساؤل الدامع :

— صحيح يا دكتور رشيد ؟!

اتسعت ابتسامة رشيد وهو يربت على كتفه :

— إننى على استعداد أن أقول الحق حتى على رقبتى !

فجأة احتضنه بسيم وقبله فى وجنته قبلة حارة دامعة :

— حفظك الله يا دكتور رشيد .. لن أنسى لك جميلك أبداً .. لقد أرسلك الله فى الوقت المناسب لانقاذ ابنى وحيدى !

أشاح رشيد بوجهه بعيدا حتى لا يجرفه طوفان المشاعر :

— الفضل لله وحده .. لم تكن حالته تستدعى كل هذا القلق .. لابد أنه تناول وجبة دسمة عجز عن هضمها !

خرجت نوال من دوامة التمتمات والدعوات بطلب الرضا والسماح :

— حازم ليس نهما .. ولذلك تراه .. يا حبة عينى .. كعود

القصب !

كسرت ثريا حاجز الصمت المحيط بها :

ـــ إنه فى أشد الحاجة إلى الحنان والرعاية والحب الذى عجز عن أن يجده فى بيته !

دهش رشيد لملاحظة ثريا العنيفة وأيقن أن هناك خلفية لا يعرفها ، خلفية أكدتها كلمات الأب والأم المتداخلة اللاهثة :

ـــ سنحيطه بالحنان والحب !! سنكون من الآن فصاعـدا تحت أمره .. ليس لنا ابن سواه !! إنه كل أملنا ومستقبلنا !! لم يكن يسمح لأحد أن يبث مكنون قلبه له !! كان منطويا دائما !! كان ـــ

أوقفت ثريا صخب الكلمات المتداخلة الفاقدة لكل تناغم :

ـــ إنه لا يحتاج إلا للحب ! والحب كفيل بصنع المعجزات !

ربتت نوال على يد ثريا الممسكة بها فى حنان دافق :

ـــ أمرك .. أمرك !

ساد صمت ممزوج بارتياح عميق وإن لم يخل من بعض القلق الذى ترسب فى قاع بسيم الذى شغل نفسه بمتابعة حركة الأطباء والممرضين والممرضات وبعض المرضى أو المصابين الممددين على بعض النقالات المعدنية المنطلقة إلى الغرف الأخرى ، ولهج لسانه بحمد صامت لله على أن الأزمة التى هوت على رأسه كقبضة حديدية فبعثرت مخه إلى أشلاء قد مرت وصحا منها وإن كان لا يزال يعانى من آثار الكابوس ! لم يتذكر قلبه أو ضغطه أو قلقه من ازدياد السكر فى دمه ! كان كل همه أن يجتاز ابنه المحنة حتى لو قدم حياته فداء له !

مرت اللحظات والثوانى والدقائق التى لم تصل بعد إلى الساعة ،

وتصاعد معها القلق داخل بسيم ونوال إلى أن فتح باب الغرفة وخرج الدكتور نزيه والعرق يتصبب على جبينه وأسفل عينيه الباسمتين :

— الحمد لله .. كل شيء على ما يرام .. إنه فى حاجة إلى راحة تامة .. سيقضى هنا يومين ثم ينتقل إلى بيته لإكمال علاجه !

ابتسم نزيه لأخيه محييا ، وقبل أن يفتح أحد فمه بالشكـر كان الدكتور نزيه قد اختفى فى غرفة مكتبه المجاورة فى حين برزت النقالة البيضاء من الباب المفتوح يدفعها الممرض والممرضة بطول الممر وقد لهث الأب على يمناها والأم على يسراها وقد تحولا إلى عيون ملهوفة على وجه ابنهما الشاحب العائد إلى الوعى بابتسامة وجلى باهتة تحولت إلى خجل دامع عندما لمح ثريا تسير وراء أمه !

دخل الجميع مصعدا فسيحا توقف بهم عند الطابق الثانى حيث أسرعوا عبر الممر الأبيض المشبع بروائح المطهرات ، ثم انحنوا يسارا حيث غرفة مفتوحة ذات سرير واحد توقفت النقالة بحذائه . أسرع بسيم ورشيد بمساعدة الممرض والممرضة فى حمله إلى السرير ثم خرجا بالنقالـة صامتين . جلس بسيم على يسار ابنه والأم على يمينه ، وكل من ثريا ورشيد عند طرفى النهاية .

انحنت نوال تقبل ابنها وقد تشبثت بيده لكن زوجها قال لها فى حسم صهرته التجربة و لم تعهده ثريا فيه من قبل :

— أكد الدكتور على أنه فى حاجة إلى راحة تامة .. فلا داعى لإجهاده !

ترددت نظراتها فى خجل لم تشهده ثريا فى سلوكها المعتاد :

— لا أستطيع أن أمنع نفسى !! كل ما أفكر فى أنه كان من الممكن

أن يضيع منا فى شربة ماء .. أشعر بقلبى ممزقا بسكاكين !

عاد رشيد إلى ابتسامته العذبة الرقيقة :

ـــ لا داعى للمبالغة ! لم يصل الأمر إلى هذا الحد !

ترددت نظرات حازم الواهنة بينهم وإن تركزت فى دوراتها على ثريا تمتزج بابتسامة لم تخف عن رشيد الذى سأل حازما :

ـــ أريد أن تجيب عن سؤالى بإيماءة القبول أو الرفض ! كيف حالك الآن ؟!

هز حازم رأسه موافقا ومتكلما أيضا:

ـــ الحمد لله !!

ربت بسيم على يد ابنه وقبلها . ساد الصمت مع النظرات المتبادلة والابتسامات الوادعة . نظر رشيد إلى ساعته فبادره بسيم بقوله :

ـــ تفضلوا أنتم !! كفاكم كل هذه المشقة .!

تخلص رشيد من حرجه المفاجئ بتلقائية محببة :

ـــ ليس قبل أن ينام حازم ونطمئن عليه تماما !

تدفقت كلمات الأم وهى تمسح بقايا دموعها :

ـــ تفضلوا مصحوبين بالسلامة !! سنظل ساهرين إلى جواره طوال الليل !!

ـــ على كل حال .. الدكتور نزيه سهران الليلة .. وسيمر عليه أكثر من مرة !!

أحاطه بسيم بنظرات إجلال :

ـــ لا حرمنا الله منك ومن الدكتورة ثريا !

ابتسمت ثريا فى حين نهض رشيد قائلا :

ــ سنأتى فى الصباح الباكر للاطمئنان على حازم !

ابتسم حازم لهما وهما يودعان أبويه وينطلقان عبر الممر وعلى درجات السلم إلى الطابق الأول . أطل رشيد برأسه داخل غرفة مكتب أخيه فوجدها خالية . أمسك بيد ثريا فى سعادة حتى ركبا العربة . هبت نسمة هواء عليلة داعبت خصلاتها الذهبية فى محاولة لتجفيف بعض حبات العرق تحتها . بمجرد خروج العربة من البوابة الخارجية الكبيرة تساءلت ثريا فيما يشبه الشرود :

ــ ألم أقل لك يا رشيد أننى شككت فى شعور حازم تجاهى ليلة دق جرس الباب بعد رحيلك ليسألنى فى خبث الأطفال عما إذا كان أخى قد عاد من أمريكا ويعبر عن رغبته فى السلام عليه والترحيب به لشدة شوقه إليه ؟!

ــ لم أهتم لملاحظتك تلك فى ذلك الوقت ؟! كنت أظن أنه مجرد شعور مراهق تجاه أستاذته الجميلة الساحرة .. لكننى لم أتصور أبداً أنه يعانى هذا الكم المرعب من الانطواء والضياع !!

ــ أسمعت أمه وهى تدعو الأسياد لنوال رضاهم وسماحهم ؟!

ــ من الواضح أنها مدمنة زار ؟!

ــ وأوشك إدمانها أن يدمر البيت كله بمن فيه !!

ــ لقد حملنى نزيه مسئولية علاج حازم نفسيا !! فلو تكررت الظروف فمن الممكن أن يعيد المحاولة التى قد تكون قاتلة فى المرة القادمة !

ــ لاشك أن الصدمة المروعة التى مر بها أبوه وأمه هذه الليلة من شأنها أن تغير من سلوكهما بعد أن واجها عمليا احتمال فقده إلى الأبد !

— وعليك أنت أيضا أن تقنعيه بأن الصداقة الواعية الناضجة أروع ألف مرة من حب غير متكافىء ومن طرف واحد !

ابتسمت ثريا فعاد البريق الأخضر الداكن إلى عينيها وهى تداعب وجنة رشيد بأناملها الرقيقة :

— هل نجح حازم فى إثارة غيرتك ؟!

انطلقت ضحكته المجلجلة المحببة إلى قلبها مع إشارة المرور الخضراء :

— إلى حد ما .. ومع ذلك فأنا ألتمس له العذر .. إذ كيف لمراهق مثله أن يمنع نفسه من الوقوع فى غرامك .. فى حين أنا الذى أعتبر نفسى حكيما متزنا نجح فى مقاومة كل إغراءات العيون الزرقاء والخصلات الذهبية والبشرة الوردية لفاتنات إنجلترا .. لم أستطع أن أقاوم سحرك ! كان الله فى عونه فعلا !!

استأنف ضحكته التى تجاوبت معها ثريا فى سعادة دافقة :

— يبدو أن الدكتوراه التى حصلت عليها لم تكن فى علم النفس بل كانت فى فن الغزل !!

— إنه فن تعلمته على يديك !!

وتوالت الضحكات المرحة كاسحة أمامها بقايا التوتر الذى تربع على قلبيهما منذ استغاثة بسيم بهما !

(١٢)

تسللت خيوط الفجر من خصاص نافذة الغرفة البيضاء . كانت نوال قد غفت قليلا فى حين ظل بسيم يقظا طوال الليل برغم إجهاده الجسدى والنفسى . فتحت عينيها متثائبة وهى تنظر إلى ساعة يدها الذهبية الدقيقة التى أعلنت اقترابها من السابعة . كان حازم مستغرقا فى نوم هادئ وإن انتابت جفنيه بعض الحركات العصبية الخفيفة فى متابعته لحلم ما . أما الحمرة فقد أخذت كل مأخذ من عينى بسيم اللتين غرقتا وسط دوامات من الهالات السوداء . قال بصوت هامس لا يخلو من ارتعاشة :

ـــ الحمد لله .. منذ مرور الدكتور نزيه عليه فى الثالثة لم يعكر صفو منامه شىء !

تنهدت بدورها وكأنها تزيح ثقلا من الرصاص فوق قلبها :

ـــ الحمد لله .. مرت المحنة بسلام ! أتمنى ألا يرينا الله مثلها !!

نظر إليها بعينين ذابلتين :

ـــ لا يشعر الإنسان بنعم الله عليه طالما كانت فى حوزته !

أدركت ما يرمى إليه فأبت إلا أن تعترف بجميلهم وفضلهم عليها :

ـــ لا ينكر الجميل إلا ابن الحرام ! وقد أكدت لى هذه المحنة أننا لم نفقد رضاهم وسماحهم برغم تبرمنا وعقوقنا وجحودنا !

نهض بسيم ليجلس على المقعد المجاور للفراش والمواجه لها . امتزج

الذبول والحمرة فى عينيه بروح التحدى والكبرياء التى تصاعدت مع المحنة :.

ـــ كنت أظن أن المحنة ستعيد إليك رشدك ووعيك .. لكن للأسف يبدو أنها ضاعفت من رسوخ معتقداتك إياها !!

ـــ نذرت لهم حفلا كبيرا إذا اجتاز حازم المحنة حتى يتم الرضا والسماح ! ولا أستطيع الرجوع فى نذرى .. فليس لى سوى ابـن واحد !

علا صوته قليلا وإن لم يخل من الارتعاشة :

ـــ حازم اجتاز المحنة بفضل الله الذى شخص لنا الدكتور رشيد فى اللحظة المناسبة !

عاد الإصرار القديم إلى نبراتها :

ـــ النذر ليس كلام عيال حتى يقال أمس ويسحب اليوم !

أشاح بوجهه فى سأم وضيق مكبوتين :

ـــ على كل حال .. ليس هذا وقت الحديث فى هـذا الموضوع السخيف المعاد الممل .. لكن بمجرد شفاء حازم بإذن الله سأحسمه حتى لو حرمتك منه !

لم يقع التهديد من نفسها الموقع الذى أراده ، بل نهضت بنفس الإصرار فى حين فتح حازم عينيه مبتسما متسائلا فى صوت واهـن خافت :

ـــ إلى أين يا ماما ؟!

ـــ مهمة قصيرة أعود بعدها إليك فوراً !

ـــ لا تتأخرى !

انحنت عليه تقبله :

ـــ لن أتأخر !

خرجت والحنق يكاد يقتل بسيما . تظن نفسها فى حماية الأسياد ولذلك لا تعبأ بتهديدات الآخرين حتى لو كانت موجهة ضد مستقبلها بل وحياتها نفسها !

لاحظ حازم شرود أبيه فداعبه :

ـــ صباح الخير يا بابا !

ـــ صباح الفل يا حبيبى !

نهض حازم جالسا فأسرع أبوه بوضع وسادة وراء ظهره :

ـــ تسببت فى كل هذه المتاعب والآلام لكم !

ـــ لا تقل هذا يا حبيبى .. فحياتنا لا قيمة لها بدونك !

ربت حازم على يد أبيه الذى عاد ليجلس إلى جواره على الفراش ويواصل حديثه المتدفق بالحنان والرقة :

ـــ ولو أننى أريد أن أعاتبك منتهزا فرصة خلو الغرفة ومحاولا إزالة كل الحواجز بيننا .. ومع ذلك لا أزال مترددا خائفا !

أشاح بوجهه تجاه نور الصباح الذي اجتاح النافذة :

ـــ عندك حق يا بابا ! فما ضرنى سوى هذه الحواجز !

ارتاح الأب للإجابة التى لم يتوقعها :

ـــ إذا كان الدكتور نزيه قد شخص الحالة بأنها تلبك معوى حاد .. فهذا من كرم أخلاقه .. وإكراما لخاطر أخيه !! حتى لا ندخل فى إجراءات واستجوابات بوليسية !! ولذلك أريدك أن تصارحنى بكل الدوافع الكامنة وراء ما جرى لك !! فأنا أبوك وأنت ابنى !! أليس

كذلك ؟!

طغت حمرة باهتة على وجنتيه الشاحبتين فى بحثه عن مدخل للرد ، لكنه تردد فما كان من الأب إلا أن أردف :

— إذا كنت مجهدا .. أو حتى رافضا للإجابة .. فلن أضغط عليك !

أزاح حازم الغطاء الأبيض الخفيف قليلا عن ساقيه فاكتشف أنه لا يزال يرتدى قميصه وبنطلونه . ابتسم الأب محاولا تغيير الموضوع :

— أعتقد أن ماما ذهبت إلى البيت لإحضار بيجامة وغيار داخلى لك !

جمع حازم قواه وقرر اقتحام الموضوع برمته :

— لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدون أمل .. حتى لو كان هذا الأمل وهما كاذبا !!

— إنك شاب فى مقتبل العمر والمستقبل مفتوح أمامك على مصراعيه .. جمعت بين حب الناس لك والتفوق فى دراستك .. فأين ذلك الوهم الكاذب الذى ضاع منك فتركت حياتك كى تضيع معه ؟!

أصر حازم على عدم التقاء العيون :

— أنت أدرى يا بابا بأحوال أسرتنا التى لا تسر حبيبا أو عدوا !

— هذه الأحوال ليست طارئة علينا .. فما الذى استجد كى تفعل بنفسك ما فعلت ؟!

عاد حازم إلى تردده فأردف أبوه قائلا :

— سأوفر عليك مشقة الإجابة .. إذ يبدو .. وأرجو أن أكون مخطئا .. أنك صدمت بخطبة ثريا لرشيد !! فلم يكن تعلقك بها خافيا

على أبيك !!

رأى حازم أباه فى صورة جديدة ، صورة تمنى أن يراه فيها منذ زمن بعيد ، صورة الأب بشخصيته القوية التى تجمع بين الحزم والحنان ، بين القدرة على المواجهة والمصارحة ، والقدرة على الاحتواء والاحتضان فى الوقت نفسه . وجد حازم نفسه ينطق بكلمات لم يفكر فيها و لم يستعد لها :

ـــ لست مخطئا أبداً يا بابا !! كان تعلقى بها تعلق الغريق بالقشة ! كنت مدركا تماما أننى لن أتزوجها ! يكفى فارق السن بينى وبينها ! كما أنها كانت تعاملنى دائما كأخيها الأصغر ! لكن حنانها الدافق الساحر أصابنى بالعمى لدرجة أننى لم أتصور وجود من يشاركنى فيها .. وذلك برغم معرفتى بكل الشباب الذين تقدموا لخطبتها .. فلم تكن تخفى عنى شيئا ! إلى أن فوجئت بالدكتور رشيد معها دون أية مقدمات لامتصاص الصدمة !

تدفقت ينابيع المياه الصافية الباردة فى خلجات بسيم فمد ساقيه فى استرخاء :

ـــ والحمد لله أن الذى تسبب فى صدمتك .. كان هو نفسه الذى أنقذك منها !

ـــ لم أعرف أنه بهذا النضج والرقة .. صحيح أن الطيور على أشكالها تقع ؟! لكن هل تظن يا بابا أنه شك فى شعورى تجاه ثريا ؟!

ـــ لم ألحظ شيئا عليه .. لكن فى اعتقادى أن لماحيته من الحدة بحيث تلتقط الأفكار وهى طائرة فى الجو !

ـــ لكن لا تنس يا بابا أن خطبة ثريا لم تكن السبب الوحيد فيما

جرى لى ؟!

— أعرف ما تعنيه تماما يا حازم ! وأعدك بأننى لن أترك الأمور تجرى فى أعنتها من الآن فصاعدا !

لو كان هذا التطور الذى طرأ على أبيه نتيجة لمحاولته الانتحار ، فإنه غير نادم عليها ، فقد شعر أنه استعاده بعد غياب طويل :

— أرجو أن تتفق ماما معك فى هذا الرأى !

ومض الحسم فى عينيه الخابيتين وهو يمسح بمنديله بعض قطرات من العرق تناثرت على صلعته :

— اتفاقها أو عدم اتفاقها لن يغير من الأمر شيئا !

خشى حازم أن يكون فى حلم أو غيبوبة حتى تتلقى أذناه مثل هذه الكلمات ، أو أن أباه يقولها منتهزا فرصة غياب أمه ، ومع ذلك سعد بسماعها منه . فقد كان وقع كلماته ينبئ بأن تغييرا ما قد وقع ، تماما مثل التغيير الذى يسرى داخله منذ عودته إلى الوعى . كانت روحه محمومة عندما تناول الأقراص ، لكن مع سريان مفعولها وإحساسه بالهبوط والنبض السريع فكر فى أن يصرخ طالبا النجدة ، لكن مع عودة أمه من الخارج وتصاعد الشجار التقليدى بينها وبين أبيه ، فقد الرغبة فى الصراخ وترك نفسه للغيبوبة التى رأى فيها وجوها بيضاء شاحبة وأخرى سوداء معتمة تتجمع حوله وكأنها تعرفه حق المعرفة . ظلت عيونها تتفرس فيه فى حين كان يغوص فى بحور العرق التى استسلم لها تماما وغاب بين أمواجها الصامتة الساكنة . شعر بضوء يسطع فى عينيه ثم صرخات تبين فيها صوت أبيه وأمه ؛ تلاشت الوجوه البيضاء الشاحبة والسوداء المعتمة عندما جاء من جذبه للسير على ساقين متهاويتين إلى

سيارة انطلقت ، وأصوات غامضة ، وآلام شديدة فى أمعائه التى تفجرت بنافورة لم تتوقف إلا عندما وجد نفسه فى سرير المستشفى !

ــ فيم شردت ؟!

استيقظ حازم من تأملاته على تساؤل أبيه الذى أضاف :

ــ لكننى لا أريد أن تجهد نفسك فى الثرثرة !

ــ الحمد لله .. فإننى أشعر بالحياة تسرى فى عروق مرة أخرى !

ربت بسيم على يد ابنه فى حين سمعا أصواتا خارج الغرفة دخلت على أثرها ثريا ورشيد والبشر فى أعطافهما . كانت ثريا تحمل باقة من الورود الحمراء والبيضاء وضعتها فى زهرية فارغة على مائدة بيضاء مستديرة فى منتصف الغرفة ، فى حين وضع رشيد علبة شيكولاته على رف قريب من حازم الذى تابعهما فى سعادة غامرة مع كلمات الأب :

ــ لقد غمرتمونا بأفضالكم التى لا نعرف كيف نردها !!

جلس رشيد على مقعد مقابل فى حين قبعت ثريا على نهاية الفراش ببنطلونها الجينز وبلوزتها الصفراء وخصلاتها الذهبية التى حبستها داخل شريط كحلى . مد رشيد ساقيه فى بنطلون جينز مماثل :

ــ كيف حال عريسنا اليوم ؟!

ابتسم حازم فى سعادة غامرة :

ــ الحمد لله .. فلولاك يا دكتور رشيد لكنت فى خبر كان !

وضعت ثريا ساقا على ساق وخضرة عينيها تسطع مع الشمس التى تقاوم خصاص النافذة :

ــ لم نسمع أن التلبك المعوى مهما كان حادا يمكن أن يحول الإنسان إلى خبر كان أو اسم إن !!

التزم الأب الصمت فى سعادة فى حين أردف رشيد قائلا :

— مررنا الآن على الدكتور نزيه فقص علينا قصة العجوز الذى يشغل الغرفة المجاورة .. وهى قصة طريفة برغم النهاية المأسوية التى كان يمكن للعجوز أن يصل إليها !

صمت رشيد فداعبه بسيم :

— شوقتنا يا دكتور رشيد ثم تركتنا على نار !

ابتسم رشيد دون أن يرفع عينيه عن وجه حازم :

— هذا العجوز يناهز السبعين من عمره ومتزوج من شابة لم تتعد الثلاثين .. ولكى يجاريها ويؤكد لها فحولته المتجددة أقبل على تعاطى الأقراص المقوية بجنون حتى كاد أن يقضى على نفسه تماما ! فاضطرت إلى نقله إلى هنا بنفس الطريقة التى جئت بها يا حازم !

امتزج الحرج بالابتسام على وجه حازم الذى لم يغب عن ذكائه ما يقصده الدكتور رشيد . بحث عن مدخل مناسب للكلام فلم يجد . أنقذه أبوه من الحرج :

— هذه الدنيا مليئة بالألغاز يا دكتور رشيد .. عجوز متهالك لا يزال يتشبث بالدنيا التى زهد فيها شاب لا يزال فى مقتبل العمر !

حاول حازم أن يتخلص من حرجه :

— لكن النتيجة كانت واحدة فى الحالتين !

تدخلت ثريا بحزم خبره حازم من قبل أكثر من مرة :

— أكبر غلطة يمكن أن يرتكبها الإنسان فى حق نفسه أن يعجز عن فهم من يتعامل معهم أو يحاول أن يفهمهم على هواه !

سعد الأب لهذه الملاحظة الحادة ، وندم على اتهامه لثريا بأنها السبب

فى تعلق ابنه بها ، وحمد الله على أنه لم يصرح بهذا الاتهام أمامها ، فهى فتاة رائعة يندر أن يجد مثيلة لها ، ومعرفتها كنز يجب أن يحافظ عليه بأى ثمن . أما رشيد فقال :

ــ الصداقة الناضجة الواعية أبقى وأروع من حب غير متكافئ أو حب من طرف واحد !

قرر حازم أخيرا أن يكون رجلا على مستوى الموقف :

ــ كل البشر معرضون لارتكاب الأخطاء .. المهم أن يستفيدوا من أخطائهم !

نهضت ثريا وفتحت خصاص النافذة فافترش النور أركان الغرفة :

ــ الخطأ خير معلم للإنسان الذى لا يرتكبه مرة أخرى !

لم يستطع بسيم أن يمنع نفسه من التدخل فى هذا الحوار المبهر :

ــ أروع شىء فى الوجود أن ينطق الشباب بالحكمة فى سن مبكرة.. فأنا مثلا لم أستفد من أخطائى إلا منذ أربع وعشرين ساعة!!

ظن رشيد وثريا وحازم أنه يمزح لكنهم ذهلوا عندما رأوا ملامح الجدية تقبع متجسدة على وجهه . استأنف كلامه بجدية أكثر :

ــ أحيانا يظن الإنسان أن حرصه على الحياة يدفعه إلى كثير من التنازلات .. لكنه يدرك بعد ذلك أن حرصه كان تفريطا حقيقيا فيها .. مثله فى ذلك مثل جارنا العجوز !

عادت ثريا إلى الجلوس على حافة الفراش :

ــ حكى لى حازم كثيرا عما عانيته حضرتك من إدمان طنط نوال للزار الذى أوشك أن يضيع الورشة كلها !

ارتاح بسيم لهذا التباسط :

— وكان على وشك أن يضيع ابنى الوحيد أيضا !!

— يبدو أن حضرتك نجحت أخيرا فى وضع يدك على بيت الداء ؟!

— وإن كنت قد تمنيت الوصول إلى هذه النتيجة منذ عشر سنوات مضت على الأقل !!

علق رشيد على كلامه بابتسامة حانية :

— الندم لا فائدة منه .. الحمد لله على الوصول إلى النتيجة المرجوة قبل فوات الأوان تماما !

قفز تساؤل من عينى بسيم إلى وجه ثريا المشرق :

— لكن اسمحى لى يا دكتورة ثريا أن أسألك عن السر فى حضورك حفلات الزار برغم علمك وثقافتك الواسعة ؟!

تبادلت ثريا مع رشيد نظرات لم تخف على حازم وأبيه ، لكن رشيدا لم يرد سوى بابتسامته ! فأجابت ثريا فى تلقائية محببة :

— مجرد حب استطلاع !

— لكن هل يصل حب الاستطلاع إلى درجة طلب الصفح من الكودية حتى تسمح لك بحضور الحفلات مرة أخرى بعد ما صدر عن السيدة والدتك فى المرة السابقة ؟! وهو ما ضاعف من إيمان الحاضرات بسر الكودية الباتع !

تأكد حازم أن أباه تغير تماما ! حتى ثريا احتارت فى الرد عليه ! أردف قائلا :

— قد تذهلين عندما تعلمين أن زوجتى قد ذهبت الآن للاتفاق مع الكودية على إقامة حفل نذرته لنجاة حازم !! وان لم تصرح بذلك ! لكننى أفهمها مثل راحة يدى ! ولذلك قررت أن أضع حدا لكل هذا

العبث والضياع بمجرد خروج حازم بسلامة الله !

أيقن حازم أن أباه أصبح قادرا على تنفيذ ما يقول . لكنه لم يفتح فمه بكلمة إذ أن الأمور لا يمكن أن تصل إلى أسوأ ما وصلت إليه بالفعل . تراجع الصمت أمام كلمات ثريا الهادئة :

ـــ أرجو ألا تتخذ أى إجراء قبل القضاء على رأس الحية !

ذهل بسيم لنظرتها الثاقبة :

ـــ كيف يمكن القضاء عليها والقانون نفسه لا يحظر نشاطها ؟!

ـــ العلم قادر على تعرية حقيقة من عجز القانون عن فضحهم وإيقافهم عند حدهم !

نكس بسيم عينيه فى استسلام واضح :

ـــ منذ متى كان سلاح العلم أقوى من سلاح القانون ؟!

لم تصمت ثريا بل زادت إصرارا أثار إعجاب حازم القديم بها :

ـــ ذلك لأننا لم نستخدم سلاح العلم حتى الآن !

أضاف رشيد مستمتعا بالمناظرة الفكرية :

ـــ عندما ينتشر نور العلم والمعرفة والثقافة ليضىء النفوس من الداخل فإن القانون نفسه سوف ينتقل من منصة المحاكم ليتربع على عرش القلوب والعقول .. فالقانون ليس مجرد نصوص على الورق ولكنه فى حقيقته نبض فى عروق المتحضرين من البشر !

بدت بوادر التحفز على حازم منذ مدة فنطق أخيرا :

ـــ هذه أفكار مبهرة .. لكن كيف يمكن إخراجها إلى حيز الوجود والجهل يكاد يغرقنا تماما فى بحاره العميقة المظلمة ؟!

ركزت ثريا وميض عينيها الأخضر عليه :

—لو قال كل واحد فينا مثل هذا الكلام لظللنا على حالنا أو صرنا إلى أسوأ !

أكمل رشيد كلماتها وأفكارها :

ـــ فلنبدأ بأنفسنا .. لعلنا نضرب المثل للآخرين !

شعر بسيم أن هذا الكلام لا يصدر عن فراغ أو لمجرد الثرثرة :

ـــ هل هناك خطة محددة يا دكتور رشيد للشروع فى هذا فعلا ؟!

ـــ لم نصل بعد أنا وثريا إلى مثل هذه الخطة .. وإن كنت أعتقد أن خير وسيلة للتغلب على الخصم هى بفتح ثغرة فى حصنه حتى يسهل ضربه من الداخل !

ومضت عينا بسيم ببريق أخاذ لأول مرة :

ـــ لى عميل داخل الحصن يتمنى أن ينهار على رأس أصحابه !

ابتسم ثلاثتهم فى ذهول ظنا منهم أنه يداعبهم لعدم تصديقه ما يقال ، لكن رشيدا واصل جديته :

ـــ إننى لا أمزح !! أقصد أنه لابد من معرفة خبايا الخصم حتى نصيبه فى مقتل ؟!

أجاب بسيم بنفس الجدية :

ـــ وأنا أيضا لا أمزح ! فقد جاءتنى المنشدة بنفسج وعبرت لى عن حقدها الدفين القديم على ألطاف ورغبتها المحرقة فى الانتقام منها ! وهى على استعداد لعمل أى شيء فى هذا السبيل !

قالت ثريا فيما يشبه التأمل والشرود :

ـــ لاحظت هذا على نظراتها فى الحفل الأخير !

لكن رشيدا تساءل فى حذر :

ــ ألا يحتمل أن تكون دسيسة عليك ؟!

هز بسيم رأسه رافضا الاحتمال :

ــ لدى ما يؤكد صدقها .. وعلى كل حال لابد من توخى الحذر بحيث نأخذ منها ما نريده ولا نعطيها ما يحتمل أن تكون قد سعت إلى تحقيقه من أهداف !

استمر رشيد فى تساؤله المشبع بالإثارة هذه المرة :

ــ حبذا لو تم لقاء سرى بيننا وبينها !

ــ يمكننى هذا .. لكن ما العمل إذا فشلت مساعينا ؟! إن استمرار حياتى على هذا المنوال أصبح أمرا مستحيلا !

شعرت ثريا أن التساؤل الحرج موجه إليها :

ــ فى هذه الحالة .. لحضرتك الحق كل الحق فى اتخاذ ما تراه من قرارات !! فالإنسان يعيش حياته مرة واحدة !

أضاف رشيد بثقة فائقة بالنفس :

ــ أنا شخصيا متفائل .. فتاريخ البشرية يؤكد انتصار العلم على الجهل فى كل المعارك التى خاضها ضده .. وإذا بدا الجهل سيدا سائدا فى عصر من العصور فهذا استثناء من القاعدة لا يلبث أن يزول ! إن جحافل الظلام مهما تكاثفت وتعاظمت فإنها لا تستطيع أن تتصدى وأن تتغلب على ضوء شمعة صغيرة !

استرخى بسيم غير شاعر بإجهاد الساعات الماضية ومحنتها :

ــ إنكم تمنحونى من الأمل المشرق القوى ما افتقدته منذ عشرين عاما !

نظر حازم إلى أبيه فى سعادة غامرة ، وهو يشعر بشهيته تتفتح للطعام

والحياة كلها ! ضغط على يده فى حنان غامر :

— وأنا ؟! أليس لى دور فى هذه المعركة التاريخية ؟!

ضحكوا بكل صفاء القلب . أردفت ثريا ببقايا الابتسامة على وجهها المشع :

— إذا تماثلت للشفاء بسرعة .. فسنجندك فورا !

ألقى حازم الفراش الخفيف بعيدا عن ساقيه فى عبث طفولى :

— أشعر الآن كما لو كنت قد شفيت من أمراض كثيرة وفى إمكانى حمل السلاح فورا !

امتلأت الغرفة الصغيرة بالضحكات الصافية مع دخول الممرضة الباسمة حاملة بصينية عليها إفطار خفيف ، وملقية بتحية الصباح التى رد الجميع بأحسن منها فى حين علق رشيد ضاحكا :

— وها هى الذخيرة قد وصلت فى ميعادها !

شاركتهم الممرضة الرقيقة الجميلة الضحكات التى امتزجت بنور الصباح الذى غمر الغرفة ونسماته التى طاردت هواء الليلة الماضية !

(١٣)

كان حبل النظرات المتبادلة ممدودا بين ثريا وبنفسج التى انتفضت على صوت ألطاف وهى تأمرها باستئناف الإنشاد . عادت الدقات إلى عنفوانها مع نفس الأناشيد التى سمعتها الحاضرات من قبل . وماجت الدوامة بالحاضرات بين قطرات العرق ، وتمايل الأجساد ، وإيقاع الصنوج ، ودقات الدفوف ، وتكاثف البخور ، واهتزاز الشموع ، ونواح الناى ، وصوت بنفسج المتدفق الهادر بشمع الليالى ، وسيد العيلة ، وسلطان الجان ، واللولى والمرجان ، ورئيسة الديوان ، والفل والريحان ، وحملة العيان ، والوعد والمكتوب ، وحبل الشقا الممدود ، والقلم الفضة والحبر الزعفران ، والسلطان العجبان وأخته أم الغلام !

أخذت الأسطى ألطاف نوال من يدها حول الكرسى المنصوب لتجلسها على مقعد أمامه وسط المجلس ، فى حين جلست الحاضرات على السجادة الكبيرة المحيطة بالمائدة . لمحت ألطاف وميضا غريبا فى عينى ثريا وهى قابعة فى ركنها على السجادة . لم تسترح لها بل إن شيئا غامضا داخلها أنبها على سماحها لها بالحضور ، ولذلك نوت على سحقها إذا بدر منها أى شيء ، فلن تكون أقوى من أمها . بل وقررت ألا تغيب عن عينيها أبداً ، ولذلك تجاهلت فقرة ذبح الديك والدجاج بعض الوقت حتى تقرأ ما يدور داخل ثريا التى لاحظت بدورها تركيز عينيها عليها ، بكل اتساعهما وعمقهما وسوادهما ، فأرخت نظراتها لتتابع نقوش

السجادة الفاخرة !

جلست ألطاف على الكرسى المجاور لنوال ، وبنفسج كلها دهشة من هذه التغيرات المفاجئة فى البرنامج والطقوس ، وإن كان معظم الحاضرات لم يلحظن شيئا غير عادى بعد وقوعهن تحت تأثير البخور والإنشاد والدقات المحمومة مع دورانهن وتمايلهن . كذلك كانت الست عدالات القابعة إلى جوار ثريا تنظر إلى نوال نظرات امتزج فيها الحقد بالضيق بل والاحتقار ، فى حين كانت النشوة تومض فى عينى نوال !

انتظمت بنفسج والجوقة حول ألطاف ونوال مع الحاضرات على السجادة . دار الغلمان السود بالقهوة على الجميع فى فترة راحة لم تزد على نصف ساعة بناء على أوامر الأسطى . بمجرد تناول القهوة شرعت بنفسج والجوقة فى إعداد الدفوف والطبول ، وسرعان ما نهضت ألطاف ونوال وحولهما الجميع مع الدقات التى عادت بأعنف مما سبق مع الدوران والتمايل والإنشاد الذى ينادى ركوشة هانم :

— يا ركوشة هانم يا ركوشة .. يابنت يا وره يا دلوعة ..يام الملبس يا عروسة !

ثم تحولت دقة ركوشة هانم إلى دقة سلطان البحر :

— يا ساعى البحر يا سلطان يا سفينة البحر يا عوامة .. حلوين يا بنات البحرية .. حلوين وشعورهم مرخية .. حلوين يا بنات البحارة .. صاحوا وناحوا العوامة !

كانت بنفسج تغير الدقة طبقا لنظرة من عينى ألطاف وإشارة من يدها ، لكن بنفسج كانت مندهشة لهذا التلاعب بترتيب الطقوس . ومع ذلك استمرت فى الطاعة العمياء حتى تصل إلى ما تريده ألطاف

فعلا :

ـــ سليلة مرحبا يا غزال انبعى .. يا حلوة يا سليلة حلوة وجميلة . مرحبا يا غزال انبعى .. ودى داخلة الحمام والميه وردى ايه .. مرحبا يا غزال انبعى .. والمشط فضة سته عظيمة كده ليه !!

أحست بنفسج بالإجهاد ليس لأن سنها لم تعد تسمح لها باحتمال الإنشاد المتواصل ، والدقات المحمومة ، والبخور الخانق ، واللف والدوران ، والتمايل فى كل الاتجاهات ، ولكن لأنه من المفروض أن تصطحب ألطاف نوال إلى غرفة قريبة حيث تنام معها على السرير ، فى حين يمر الضيوف بفترة راحة أو إغفاءة تستمر حتى الثانية صباحا حين تستيقظ ألطاف ونوال لبدء طقوس حفل الفجر ، لكن شيئا من هذا لم يحدث واستمرت بنفسج والجوقة فى تغيير الدقات ، وألطاف تراقب ثريا من طرف خفى وقد بدا عليها الإجهاد والدوار مثل معظم الحاضرات :

ـــ جندار من ورا الجندار .. من ورا وأبيه وأبيه على جيش يا أبو جندى سامح .. بقى يا شوار يا أبو ليلة يا مرحبة عزموا الأسياد على ماما .. يا مرحبة ديربوه يا أبو ليلة .. يا وزير ماما عشقوك يا حكيم باشا .. يا وزير ماما ديربوه .. يا بيت الجلالة يا وزير ماما عاشقوك يا داخل العيادة يا وزير ماما !!

برغم إجهاد بنفسج ، بدأت تدرك معالم الخطة التى تحاول ألطاف تنفيذها . إن فراستها التى لا تخفى على أحد أوحت إليها بأن فى الجو شيئا غامضا لابد أن تدرك كنهه . ولن يتأتى لها هذا إلا إذا أصابت الجميع بالدوار بل والإغماء والغيبوبة حتى تصبح سيدة الموقف بلا منازع . عندئذ يمكنها أن تضغط على الصدور لتبوح بمكنوناتها . كان الخاطر الذى

أزعج بنفسج وجعل دقاتها على الدف مهتزة بعض الشىء ، أن تكرر ثريا غلطة أمها فتجعل من ألطاف ملكة الزار فى مصر كلها ، خاصة وأن خطواتها فى الحلقة قد أصبحت آلية تماما ، وخبا وميض عينيها الأخضر ، ونضح العرق تحت إبطيها على ردائها الأبيض .

كانت الساعة تقترب من الواحدة صباحا . أعلنت ألطاف بدء فترة الراحة وبدلا من اصطحاب نوال إلى الغرفة الجانبية للنوم عادت للجلوس معها على المقعدين المواجهين والتفت الجوقة حولهما فى حين ركنت الحاضرات للراحة والاسترخاء والإغفاء . أما ألطاف فقد سلطت شظايا عينيها على ثريا فى ركنها على السجادة . حاولت ثريا قدر إمكانها تفادى حممها وهى تقاوم الإعياء الذى أوشك أن يمسك بتلابيبها ، ولولا إرادتها الحديدية التى استمدتها من أعمق أعماقها لكانت الآن لعبة بين أصابع هذه الساحرة الجبارة !

ساد الصمت الرهيب برغم أصوات الشهيق والزفير المنتظمـة ، والشخير المتقطعة . انقشعت سحابات البخور الداكنة ، ومع ذلك لفت المكان فى غلالة رمادية شفافة لم تساعد ثريا على تفادى نظرات ألطاف إلى عينيها وكأنها تسعى إلى تنويمها مغناطيسيا . لم ينقذها من هذا الحصار المغناطيسى سوى دقات ساعة الحائط الفاخرة تعلن الثانيـة صباحا . فجأة صفقت الأسطى ألطاف ثم أمرت الغلمان السود بإحضار الكبش .

نهض الغلمان من دائرة الجوقة واختفوا فى المطبخ ، وسرعان ما عادوا بكبش مزين بالزهور وبطست وملاءة بيضاء شدها الغلمان على شكل خيمة صغيرة دخلت تحتها ألطاف ونوال والكبش وسرعان ما ظهر

قصاب ضخم الجثة ثم اختفى تحت الملاءة . انطلق أنين الكبش الذبيح واهتزت الملاءة فى عنف مع بقع الدماء التى تناثرت أسفلها كنافورة ساخنة ، وأصابت ثريا بهلع حاولت كتمانه بعد أن حاول الخروج من صدرها صارخا مع صيحات ألطاف : دستور يا أسياد .. الرضا والسماح يا أسيادى !

انقشعت الملاءة عن كبش مضرج فى دمائه داخل الطست ، والقصاب يغادر المكان بسكينه التى تومض تحت الدماء المتساقطة منها ، فى حين عادت ألطاف ونوال الملطخة بالدماء إلى المائدة المستديرة حيث جعلتها ألطاف تركع منكسة الرأس إلى الأرض ، وسهام الغيرة تنطلق بوميضها الشرس من عينى عدالات فى جلستها إلى جوار ثريا التى استماتت فى تمسكها بإرادتها الحديدية لإحساسها بأن اللحظة الفاصلة الحاسمة قد اقتربت بكل رهبتها !

انتظمت الحاضرات مرة أخرى حول ألطاف ونوال ، ودارت بنفسج والجوقة بإنشاد هادر ودقات مسعورة حول الراكعة :

— شيخ محضر .. يا شيخ محضر . اللى عليه عفريت يحضر !! شيخ محضر .. يا شيخ محضر .. اللى عليه عفريت يحضر !!

وتكرر الإنشاد الهادر والدق المسعور مع تمايل الأجساد والظلال والشموع ، وإعياء ثريا البادى ، فى حين برز غلام أسود يحمل لفافة ضخمة أخرج منها عباءة حمراء موشاة بالقصب ، وطربوشا مكللا باللؤلؤ ، وسيفا وخنجرا من فضة . لبست نوال العباءة الحمراء بمساعدة ألطاف التى وضعت الطربوش بمعرفتها على رأسها ، ثم قلدتها السيف والخنجر ودارت حولها مع بنفسج بالدفوف ، والجوقة تدق وتنفخ :

— يالوا يالوا فى الطابور عسكرى .. يالوا فى الطابور والله يا راكب حصان والحرس قدامك من بره بره يا لابس بدلتك والحرس قابلتك من بره بره !! دنت يا وره العربى سلامين .. خدوك بيادة .. يالوا يالوا والعوض على الله .. وسعوا السكة تماما .. خلوا العسكر تفوت يا وره بيه .. العب يا بيه يا وره ادلع يا بيه .. طربوش عزيزة الياوره لايق عليه .. ياقة يبانى .. لايقه عليه والخاتم مدهب لياوره لايق عليه .. وساعة وكتينة لياوره اسم الله عليه .. قاعد على البورصة يا وره يشرب كافيه وفى إيده منشة وفارق الكاريه يابو الروايح ياوره خمسة عليه !!

تمايلت نوال وسط الجمع العظيم ثم انتفضت صارخة :

— السلام عليكم !

سألتها ألطاف والشرر يتطاير من سواد عينيها :

— أهلا وسهلا .. تحت أمرك ! من أنت يا سيد !

أجابت نوال بصوت أجش كصوت الكهول !

— أنا .. كادو .. سلطان الجن الأحمر !

صمتت الدفوف وتلاشى الإنشاد مع سؤال ألطاف :

— دستور !! ماذا تريد ؟!

— كل طلباتى التى أمرت بها الأسطى ألطاف فى الرؤيا !! وإلا أخذت ابنها وحيدها بلا رجعة ؟!

— دستور !! طلباتك كلها مجابة .. ذهب وفضة ونقود وذبائح !

هنا دق قلب ثريا فى انتفاضات سريعة أوشكت أن تقفز به خارج صدرها ، ومع ذلك تركت الدائرة لتواجه ألطاف ! حاولت عدالات الإمساك بيدها وإعادتها إلى الطابور لكنها نفضت ذراعها بعيدا ومعها

الرعب والإعياء ! فى لمح البصر التفتت ألطاف إلى ثريا التى صاحت فى وجهها بصوت أعلى من الإنشاد والدقات الهادرة :

— كفاك يا جمالات دجلا واستنزافا لعرق الناس وكدحهم !

فى نفس اللحظة الرهيبة توقفت بنفسج عن الإنشاد والدقات ومعها الجوقة كلها . ساد سكون العاصفة بل الإعصار . تركت ألطاف نوال لتواجه ثريا واضعة ذراعها فى وسطها ، والشظايا تنطلق من عينيها بأقصى اتساعهما :

— ماذا قلت ؟!

أعادت ثريا نفس الكلمات ولكن بثقة أكبر وإيقاع أعمق ردده صمت السكون . هزت ألطاف خصرها مع حاجبها الأيمن :

— إذا كنت قد فقدت الوعى فسأسامحك بشرط ألا أرى وجهك مرة أخرى ؟! أما إذا كنت فى وعيك فسأترك لعناتهم تنصب على أم رأسك .. والجميع هنا شهدوا وعرفوا ما جرى لأمك يوم فقدت وعيها وأهانتهم !!

عشش الطير على رءوس الجميع فسرى الصمت ، وتحجرت العيون فى مآقيها ، وازداد شحوب نوال التى توسلت بنظراتها لثريا حتى تتراجع ، وطفح التشفى على وجه الست عدالات بعد طول يأس وغيرة وإحباط ، أما التشفى فى عينى بنفسج اللاهثة فكاد يصعق ألطاف التى لم تلتفت إليها بل واصلت تصعيد التحدى بعينيها المغناطيسيتين :

— لا زلت فى انتظار ردك !! إنها فرصة أخيرة لك !

قاومت ثريا وميض عينيها حتى لا تصاب بالإغماء :

— لم أكن فى كامل وعيى فى أية لحظة من لحظات حياتى مثلما أنا

الآن !!

ـــ إذاً .. فأنت تعترفين بجريمتك ؟!

ـــ الجريمة جريمتك .. الدجل والنصب والاحتيال على السذج من الناس لسرقة عرقهم وكدحهم دون أن تصل يد القانون إليك !!

لم تصدق ألطاف ما تلقته أذناها من صواعق . امتزج العرق بالحمرة على بشرتها البيضاء فازدادت توهجا وسط شعرها الأسود الطويل ذى الشلالات اللامعة المتدفقة على كتفيها وظهرها :

ـــ لن أرحم جنونك ! سأتركك للعنتهم ! فأنا وإن كنت خادمتهم فإننى فى حالتك لا أستطيع طلب سماحهم ورضاهم !! بل إنك تستحقين سحق عظامك !

صرخت نوال فيما يشبه النحيب:

ـــ دستور يا أسيادى .. الرضا والسماح يا أسيادى !

واصلت ثريا زحفها وهى تكتشف ما بداخلها من قوة عارمة لم تشعر بها من قبل ، خاصة عندما تذكرت قول رشيد : إن دهاء العلم لابد أن يكون أقوى من دهاء الجهل :

ـــ لو كان سرك باتعا كما تدعين .. وقادرة على شفاء الأمراض وعلاج العقم مثلما خدعت آخر ضحية لك طلبت منك إقامة حفل حتى ترضى عنها الأسياد وتنجب طفلا لزوجها الذى أوشك أن يطلقها بعد زواج عقيم استمر أكثر من عشر سنوات .. إذا كنت قادرة فعلا على مثل هذه المعجزات .. فلماذا عجزت عن الإنجاب فى حين يتحرق زوجك كافور شوقا إلى طفل يملأ عليه حياته الفارغة ؟!

كوميض البرق فى الليلة الظلماء ألقت ألطاف شحنة عينيها الكهربية

على وجه بنفسج ، ثم قالت لثريا فى صوت كهزيم الرعد :
— فلينقطع لسانك بأكاذيبه السامة !
سعدت ثريا بنجاحها أخيرا فى دك الحصن الراسخ :
— لن أهبط إلى مستواك فى السباب .. لكن إذا لم تكن هناك من تصدقنى من الحاضرات .. فعليها بالذهاب إلى عيادة الدكتور أحمد وليد فى ميدان باب اللوق لتعرف أن حضرتك زبونة دائمة ظلت تتردد عليه حوالى عشر سنوات لممارسة جميع أنواع العلاج و لم تفقد الأمل بعد فى الإنجاب ؟!
من أى جحيم هبطت عليها هذه الملعونة ؟! حشدت كل قواها حتى تسحقها وتذروها مع البخور الآخذ فى التلاشى فى حين تحولت الحاضرات إلى تماثيل شمعية من ذهول وشرود وهلع :
— ستكونين عبرة لمن يعتبر !
ابتسمت ثريا متسائلة فى سخرية مريرة :
— ألم تلحظى أن لعنة أسيادك لم تحل علىّ بعد ؟!
— لا تتعجلى مصيرك الأسود !
— أريد أن أكون عبرة لمن يعتبر !
لأول مرة يخونها صوتها الجهورى ، وترتعش شفتها السفلى ، ويتناثر رذاذ خفيف من لعابها وهى تصيح :
— بحق كادو سلطان الجن الأحمر .. وبحق الست الكبيرة .. وبحق ياور بك .. وركوشة هانم .. وأم الغلام .. وسلطان البحر وابنته سفينة .. وبحق هذا الحفل الذى أقيم من أجلهم .. عليك لعنتهم !
توقع الجميع سقوط الصواعق ، وانفجار البراكين ، ووقوع

الزلازل ، وانطلاق الأعاصير ، لكن شيئا من كل هـذا لم يحدث !
اتسعت ابتسامة ثريا الساخرة وتحولت إلى ضحكة :

— اياك أن تقولى أن صبرهم هذه المرة طال أكثر من اللازم .. فلا وجود لهم إلا فى عقول السذج والجهلاء والمرضى بالأوهام !

تراجعت ألطاف إلى الخلف وأمسكت بكتف نوال فى حين صاحت فى الجميع بعيون زائغة :

— لا تصدقوها .. إنها دسيسة من سلطان الجن الأزرق الذى يحارب سلطان الجن الأحمر !

دارت على الحاضرات تكرر هذه الكلمات فى استجداء مهين ، لكن معظمهن أشحن بوجوههن بعيدا عنها لأول مرة فى حين واصلت ثريا القضاء على المعاقل الأخيرة المتهاوية :

— إننى دسيسة سلطـان الجن الأخضر وأنت الصادقــة !! ألا تلاحظين لون عينى ؟!

نطق لسان نوال دون أن تقصد :

— أكاد ألا أصدق عينى !؟!

تلقفت ألطاف كلمات نوال كالغريق يمسك بقشة :

— فعلا .. كلامها لا يصدق لأنها كاذبة وستلقى مصيرها !

تجاهلت ثريا ألطاف قائلة لنوال مباشرة :

— ما جرى قبل ذلك كان الدجل بعينه .. أما هذه اللحظة فهى لحظة الصدق الكامل .. ولذلك فإن جمالات لم ولن تحتملها !

ولولت ألطاف صارخة فى حين تراجعت عدالات حتى اقتربت من الباب :

— اخرسى .. اخرسى !!

تفوقت ثريا على نفسها فمارست معها لعبة العيون المغناطيسية وهى تقترب منها مهددة برفع يمناها التى سقطت كما لو كانت قد أصيبت بالشلل ثم شهقت من حنجرتها شهقة ذبيحة طلبا للهواء فى رئتيها ثم سقطت عند قدمى نوال ، والنظرات الذاهلة شدت بخيوط إلى سقوطها العظيم . نظرت ثريا إلى نوال :

— رشى على وجهها ماء الورد حتى تفيق .. فكم رشت على وجوهكن ماء الورد خوفا عليكن من أن تطول الغيبوبة أكثر من اللازم ! والآن حانت الفرصة لنرد إليها جمائلها وأفضالها !

أسرعت نوال بأخذ الزجاجة من على الكرسى المنصوب ورشت منها على وجه ألطاف الملقاة كجثة هامدة ، فى حين تراجعت ثريا إلى الخلف . بدأ بعض الحاضرات القريبات من باب الشقة فى فتحه فى سكون رهيب والتسلل خارجه ، الواحدة بعد الأخرى ، وخلفهن عدالات ثم ثريا التى وقفت عند باب الشقة على قمة انتصارها :

— أعتقد أن الحفل انتهى .. فلتصبحن على خير !

واختفت ثريا فى حين ارتفع صوت محركات السيارات حاملة الحاضرات إلى بيوتهن . لم يبق من الحاضرات سوى نوال وبنفسج وأعضاء الجوقة . بعد رش زجاجة ماء الورد على وجهها حتى أغرقت شعرها وعنقها وأعلى صدرها ، أفاقت ألطاف قليلا فأسرعت بنفسج لتغيير ملابسها ومعها بعض أعضاء الجوقة ، فى حين استمر البعض الآخر حول الأسطى التى وضعت نوال رأسها فى حجرها . كانت ألطاف تفتح عينيها وتديرهما حولها لكنها سرعان ما تغلقهما كما لو كانت ترزح تحت وطأة كابوس مريع ، فى حين ومض فى عينى نوال بريق لم تشهدهما من قبل ، مزيج من الرثاء والسخرية والخجل من أيام الدجل ولياليه !

مع دقات ساعة الحائط الضخمة الثالثة صباحا ، نهضت ألطاف جالسة وقد تفادت النظر إلى نوال . اجتاحتها وحشة السكون والعزلة والفراغ فهرعت إلى غرفة جانبية حيث ارتفع صوت نحيبها الذى لم يخطر ببال نوال فى لحظة من اللحظات أنها يمكن أن تسمعه ، فتوقفت عند عتبة الغرفة دون أن تجرؤ على الدخول . نظرت إلى ساعة الحائط مرة أخرى ثم إلى آلة التليفون القابعة فى أحد أركان القاعة ، فارتسم على وجهها شبح ابتسامة مشحونة بالارتياح والخجل والرضا والطمأنينة !

فجأة انطلقت ألطاف بملابس الخروج لا تلوى على شىء ، بل لم تنظر حتى إلى نوال ، وفى لحظة اختفت خارج الباب المفتوح . بعد لحظات تبعها أفراد الجوقة ، وكانت بنفسج آخر من غادر المكان وعيناها تقولان لنوال أشياء كثيرة ومثيرة لكنها غامضة !

أسرعت نوال برغم ترددها الواضح ورفعت سماعة التليفون وأدارت القرص ببطء . انتظرت للحظات ثم أوشكت أن تعيد السماعة إلى مكانها لكنها عدلت بنفس السرعة الممزوجة ببعض الذهول :

— أنا نوال .. ما الذى أبقاك مستيقظا حتى الآن ! كنت على وشك أن أغلق السماعة ؟!.... كنت محرجة لكننى رأيت أن البيت بدونكما لا معنى له ! .... وحازم أيضا مستيقظ ؟! عجبا .... إنها ليلة الأعاجيب !! سأنتظركما على أحر من جمر !! مع السلامة !!

وضعت السماعة وهى تقلد ألطاف فى دقاتها للدف وتمايلها فى كل الاتجاهات ضاحكة من أعماق قلبها ضحكات صافية لم ترن فى أذنيها من قبل وهى تصيح فى سعادة غامرة :

— شيخ محضر .. يا شيخ محضر .. اللى عليه عفريت يحضر !!

(١٤)

مرت الأيام والليالى بألطاف وكأنها عجوز يجر قدمين من رصاص فى زقاق موحل مظلم . فى بداية الأمر قتلها الندم لسماحها لثريا بحضور حفلاتها بعد فعلة أمها ، فقد صورت لها ثقتها بنفسها التى بلغت حد الغرور أن انتصارها على أم ثريا جعل الجميع يدينون لها بالولاء الكامل والإيمان المطلق بسرها الباتع الذى لا يقهر لأنها استمدته من الأسياد . لذلك لم تنصت لحاستها الخفية التى أوحت إليها بالحذر من ثريا لعلها تدبر شيئا لتنتقم لأمها ، خاصة وأن حاستها هذه جعلتها تتساءل من قبل عن السر فى حرص شابة متعلمة مستنيرة مثلها على حضور الحفلات التى تقتصر على السذج والجهلاء ومرضى الأوهام ؟!

لعن الله الغرور الذى طمس أصوات الحذر داخلها ! كانت تظن أن فى إمكانها سحق خصومها فى الوقت والمكان اللذين تحددهما بنفسها ! لكن حساباتها أخطأت مع هذه الملعونة الرقيقة ذات العينين الخضراوين ! كذلك أخطأت فى معاملاتها مع بنفسج التى كانت منشدة الأسطى ريحانة يوم لاذت بها بعد ليلة حفرت فى ذاكرتها بحروف من حديد ونار برغم ظلامها الدامس ؟! ثم دانت لها الأمور ففازت بالمكانة الأثيرة التى قضت بنفسج العمر سعيا للحصول عليها ، ذلك أن كافورا لم يستطع مقاومة جمالها وشبابها ! ومع ذلك استمرت بنفسج وهى تمضغ أحقادها وتجتر أحزانها بعد أن تقدمت فى السن ولم يعد الطلب

ملحا عليها من كوديات أخريات . ومع ذلك واصلت محاولاتها المستميتة فطلبت منها تعيين ابنتها سوسن معها بعد أن علمتها كل أصول المهنة وأسرارها . لكن الابنة كانت جميلة ومغرية و لم تتعد العشرين ربيعا من عمرها ، فى حين كان كافور فى عنفوان شبابه ويتحرق شوقا لطفل ينجبه !! لم يكن من المستبعد أن بنفسج كانت تخطط لنفس اللعبة التى لعبتها هى من قبل مع الأسطى ريحانة وابنها كافور الذى لا يزال مالكا للفيلا ، وكل أرصدة أمه فى البنك باسمه ! صحيح أنه مدلل ضعيف الشخصية بل وتافه ولا يملأ عينيها ، لكن العقارات والأرصدة قوة لايمكن تجاهلها ! بل هى كل شىء فى أحيان كثيرة !

كان من الطبيعى أن ترفض تشغيل ابنتها معها ، لكن كان من الطبيعى أيضا أن تحذر بنفسج التى كانت على وشك الانفجار حقدا وحنقا وكمدا ! لكن غرورها اللعين صور لها قدرتها الفائقة على البطش بكل خصومها فى لمح البصر ! و لم تتصور أن بنفسج يمكن أن تكتشف لعبتها فى استمرار انتقامها من بسيم ، وهى التى ترددت على بيته عندما كان فى سن الصبا ! وبالتالى يمكنها أن تطعنها بتعرية حقيقتها القديمة ، بل وأسرارها الجديدة التى دفعتها للتجسس عليها حتى عرفتها كلها . وهذا ما اتضح لها أخيرا ، للأسف الشديد ، على لسان ثريا الذى قطر السم كله فى أذنيها !

وإذا كانت ألطاف قد انتقمت بطرد بنفسج أخيرا من خدمتها، إلا أنها لم تشف غليلها . كانت بنفسج على وشك الاعتزال ، كما أن نجم ابنتها سوسن بدأ يسطع مع كودية الدرب الأحمر ! لكن الخوف كل الخوف أن يكون بسيم قد فضح سرها القديم عند بنفسج التى يمكن أن تنقله سرا

كعادتها إلى كافور الذى قد يطلقها وتجد نفسها بلا مقر . صحيح أن لها أرصدة ضخمة فى البنك ، واشترت أرضا فى الروضة وشرعت فى بناء عمارة خاصة بها ، كما أن اسمها فى دنيا الزار أصبح له وزنه ، ولن يؤثر فيه كثيرا ما حدث أخيرا ، فالعلاقات بين زبائن الزار المختلفين شبه منعدمة ، ولم تعد حفلاتها قاصرة على حى أو اثنين ، بل إن الكثيرين لن يصدقوا ما وقع بالفعل ، لكن مع كل هذا لا تستطيع مقاومة رغبتها العارمة فى الانتقام من بسيم حتى النهاية ، خاصة وأن الاحتمال قائم فى إفشائه السر القديم لبنفسج !

لكن ألا يخاف بسيم أن يصل السر القديم إلى أسماع زوجته وهى التى يعيش فى خيرها ؟! ومع ذلك لا تنسى ألطاف أن نوال اعترفت لها أن زوجها ينوى تطليقها بعد أن أوشكت الورشة على الإفلاس ، وبعد أن أوشك ابنها على الموت ! ولذلك فهى لا تستبعد أن يفشى السر القديم على سبيل الانتقام من الإذلال الذى لقيه على يديها !

يكاد رأسها ينفجر برغم الحبوب المنومة والمهدئة التى اعتادت تناولها منذ ذلك الحفل المشئوم ! كل قرار تصل إليه تجد له ما يناقضه ويدحضه بنفس القوة ! فى صدرها شىء تجاه بسيم وأسرته لابد أن يحسم بطريقة أو بأخرى ! حاولت تجاهله واستئناف حياتها العادية لكنها لم تستطع ! جفا النوم مرقدها وقضت الليالى بطولها مسهدة لا يؤنسها سوى شخير كافور المتكور إلى جوارها ! قوة قاهرة تدفعها برغم إرادتها لمعاودة الاتصال بهذا البيت ! قوة غامضة لا تدرك أسبابها بوضوح ولا تستطيع تبين النتائج التى يمكن أن تترتب على هذه الخطوة، ومع ذلك تقلقها ليل ونهار حتى أوشكت أن تصيب حياتها بالشلل !

لم تخفف نسمات الخريف الوادعة من لوعتها ، وإن كانت قد خففت من قيظ الصيف الساخن الذى بدأ برحيل الأسطى ريحانة ! لم تعرف إذا كانت تعانى من الرغبة المحرقة فى الانتقام ، أم من اليأس والإحباط ، أو من الخوف من المجهول ، أو من دوران الدوائر وعودتها إلى ما كانت عليه قبل لجوئها إلى الأسطى ريحانة ، أو من مزيج من كل هذا ؟! كل ما كانت تشعر به تلك القوة الغامضة الجبارة التى تبهظ كاهلها بأثقل مما تستطيع !

لم تتوقف هذه الخواطر إلا مع تسلل ضوء الصباح من خصاص النافذة ، وانطلاق صفير صندل يخترق النيل. استدارت لتحتضن كافورا الذى تقلب ليحتضنها بدوره . قررت البدء به فى حذر حتى تتأكد من الأرض التى تخطو عليها . هزته فى رفق فتململ على صوتها :

ـــ كافور !

أجاب دون أن يفتح عينيه :

ـــ نعم !!

ـــ يبدو أننى لن أتمكن من أن أنجب لك طفلا بعد كل هذه المدة ؟!

فتح عينيه فى دهشة غير واعية لما سمعه :

ـــ ما هذا الذى تقولينه ؟!

ـــ سمعتك تقول فى منامك إنك ستطلقنى وستتزوج بأخرى تستطيع أن تحقق لك أمنيتك !!

حملق فى وجهها فى دهشة تحولت إلى ذهول :

ـــ لكننى لم أكن أحلم بشىء حتى أتكلم فى منامى !!

ـــ الحلم ليس شرطا .. لكن على أية حال .. فأنا لا أستطيع أن أربطك بى إلى الأبد وأنت تموت شوقا لطفل !! على بركة الله .. فلتفعل

ما قلته فى منامك إذا كان هذا رغبتك الحقيقية !!

انتفض جالسا وهى تتأمله بتمعن وحرص شديدين :

— أنت تعلمين أننى لا أستطيع العيش بدونك !!

جلست إلى جواره لتحتضنه وتقبله فى رأسه ووجنته :

— أريد أن أريح ضميرى الذى يعذبنى ليل نهار !!

أمسك بيدها ليقبلها فى تقديس :

— يا حياتى .. أكنت ساهمة شاردة حزينة طوال الفترة الماضية بسبب هذا الموضوع ؟!

— ليس هذا فحسب .. بل أصارحك بأننى طردت بنفسج لمجرد كلمة عابرة نطقتها فى حقك !!

نظرت فى عينيه فلمحت بريق حب الاستطلاع :

— وماذا قالت !؟!

اصطنعت الحزن والأسف :

— هذه الملعونة التى آوتها أمك طوال عمرها وأنا من بعدها .. تتجرأ على آخر الزمن وتلمح لى بالسعى لطلب الطلاق حتى أتزوج ممن أستطيع أن أنجب منه ! لكننى صفعتها وطردتها وأنا أصيح بأن زوجى سيد الرجال !! والعيب فىّ أنا !!

صمتت لتتأمل ما يجرى على وجهه من تحولات :

— هل قالت بنفسج هذا الكلام ؟!

— للأسف الشديد !!

هز رأسه فى أسى شديد :

— اتق شر من أحسنت إليه !

سرى بعض من برد الراحة داخل صدرها الذى ظل مشتعلا منذ ذلك الحفل المشئوم . نهضت تاركة الفراش فى حيوية جديدة بعد أن قبلت يده قبلة سريعة وهى تقول :

— على كل حال .. لن أفتح هذا الموضوع مرة أخرى !! كفانى أن أعيش العمر كله خادمة لك !!

سالت عيناه بنظرات الوجد والعرفان بالجميل ، فى حين تركته بقميصها الأبيض الشفاف إلى قاعة المدخل حيث رفعت سماعة التليفون وأدارت قرصه ثم انتظرت للحظات وصدرها يعلو ويهبط :

— أنا الأسطى ألطاف .. نعم .. صباح الخير يا فندم .... لا .. إنه موضوع شخصى لا يتعلق بالزار .... لا أستطيع أن أفاتحك فيه فى التليفون .. لابد أن أراك .... لن آخذ من وقتك أكثر من ربع ساعة .... وهو كذلك .. سأكون عندك بعد ساعة على أكثر تقدير ..

وضعت ألطاف السماعة وقد عاد إلى وجهها جماله الوحشى المتدفق من عينيها السوداوين الواسعتين العميقتين عمق آبار الأساطير . استدارت لتجد كافورا واقفا بالباب يتساءل :

— من هى هذه المرأة ذات الموضوع الغامض ؟!

تداركت الأمر فى لحظات كالبرق :

— أبداً .. إنها زبونة كانت قد سافرت دون أن تسدد ما عليها من ديون لى .. وعندما علمت بعودتها قررت مهاجمتها فى عقر دارها فورا قبل أن تلوذ بالفرار مرة أخرى !

سعدت لنظراته التى التهمت جسدها المتماوج داخل قميصه الشفاف . أدركت أنها أهملته منذ ذلك الحفل المشئوم ، وهو لم يتعود أن

يفرض نفسه ، بل كثيرا ما انتظر حتى تمنحه ما يريد . وبرغم ذلك فقد نجحت فى ربطه بعجلتها ، فهى عندما تمنحه تغرقه فى بحر من الشهوات والملذات التى أدمنها كطفل أدمن اللعب بثدى أمه بعد أن يشبع ويرتوى . وطالما أحبت منه هذا السلوك الذى أشبع داخلها إحساسها الجائع بالأمومة ، ورغبته المحرقة فى البنوة . ابتسمت وهى تقترب منه فى حين سالت عيناه بالنداء :

ـــ عموما أنا تحت أمرك !

دست كتفه بين ثدييها فتساءل هامسا :

ـــ وميعادك ؟!

ـــ كل شىء فى الدنيا يمكن أن ينتظر إلا سيد الرجال !

ابتسم فاحتضنته . أحاط خصرها بذراعه حتى بلغا الفراش الذى أضاء بنور الشمس المتسلل من خصاص النافذة . كم أحب جسدها العارى المرمرى فى هذا الضوء وهو يتقلب على الفراش ليحتويه بأنفاسه اللاهثة ونبضه الساخن وقطرات عرقه التى ألصقت أطراف خصلاتها السوداء اللامعة الناعمة السوداء ببعض أجزاء من ثدييها وظهرها !! ولم يكن ليعبأ بإزاحة أطراف الخصلات عن الحلمة التى عشق طعمها وعبيرها وملمسها البض الطرى . وها هو الآن يرتوى منها مثل تائه فى صحراء محرقة وقع على ينبوع ماء يمزج النقاء بالبرودة ، إن كان ينبوع كافور ساخنا ملتهبا ، فإن برد الراحة ونقاء النفس المضطربة فى انتظاره . فى تلك اللحظات الأزلية الأبدية كان نداء الأبوة داخله يتلاشى بين ذراعيها وساقيها ، أما هى فنداء الأمومة كان يتحول إلى صراخ فى أذنيها ولولا قدرتها الفائقة على التحكم فى نفسها وجسدها لطرحته أرضا ! كان ذهنها ينطلق عبر عشرين عاما إلى ذلك الذئب الصغير القابع فى

فراشه فى الشقة القديمة المطلة على نيل المنيل ، والذى حرمها بجبنه وتردده من نعمة الإنجاب بعد ليلة الاجهاض الطويل !

استرخى كافور إلى جوارها فأغرقت وجهه بالقبلات حتى أغمض عينيه كمن استغرق فى ثبات عميق . جرت عارية إلى الحمام حيث ملأت البانيو بماء ساخن وأغرقت نفسها فيه مستمتعة بمداعبة أمواجه الرقيقة الممتزجة بعطر الصابون ورغاويه . تذكرت ميعادها فخرجت منه كحورية ممشوقة من بين الأمواج لتجفف جسدها بسرعة وتهرع إلى غرفة نومها حيث كان كافور يغط فى نومه كطفل ارتسمت على وجهه بقايا ابتسامة سعيدة !

تفننت فى تجميل وجهها الذى بدا مشرقا فى المرآة لأول مرة منذ الحفل المشئوم ، وارتدت قطعتين سوداوين فى حجم الكف ، التفت إحداهما حول ثدييها والأخرى حول ردفيها ، وفوقهما فستان أصفر فى لون الكهرمان ، فى حين تركت شلالات شعرها السوداء تنهمر على كتفيها وظهرها . وضعت فى قدميها حذاء أصفر لامعا ، وفى ذراعها حقيبة صغيرة من نوعه . فتحت زجاجة عطر باريسية ، دهنت خلف أذنيها وحول عنقها ففاحت الغرفة بأريج زاد من اتساع بقايا الابتسامة على وجه كافور . استدارت مرتين أمام المرآة مستمتعة بقوامها الرشيق من كل زواياه ! كانت ساحرة فاتنة مثل نجوم الشاشة الصغيرة الملونة والأفلام الخاصة التى أدمن كافور مشاهدتها مراراً وتكراراً !

أسرعت بإيقاع حذائها الحاد الرقيق لتفتح الباب وتهبط على درجات السلم الرخامية إلى حيث عربتها الحمراء الفاخرة فى الجراج . أدارتها وانطلقت بها بحذاء النيل الذى افترشته شمس الخريف الحانية . انحرفت يمينا لتخترق ميدان الروضة الذى اخترقته على قدميها فى الاتجاه العكسى

يوم ذهبت لتلوذ بأعطاف الأسطى ريحانة رحمها الله . قبل كوبرى الملك الصالح لمحت صيدلية فتذكرت أقراصها المنومة والمهدئة التى نفذت . أوقفت العربة وهبطت منها لتدخل الصيدلية التى سرعان ما خرجت منها وهى تغلق حقيبتها .

كانت على وشك أن تفتح باب العربة عندما لمحت شيخا نحيلا ضعيف البصر يخشى عبور الشارع برغم إشارة المشاة الخضراء . قررت أن تعمل خيرا فأمسكت بيده المرتعشة . انقاد لها وهو يتمتم بكلمات غير واضحة ظنتها دعاء لها وهى تتأمل وجهه المتغضن . فجأة ارتعشت يدها هى الأخرى ! تذكرت وجهه ! إنه بطل أو أحد أبطال ليلة الإجهاض الطويل ، ذلك الذى التقطها حافية على الكورنيش تحت وابل المطر وفى عتمة الليلة الطويلة ليكمل ما بدأه معها بسيم ! نظرت خلفها فرأت البيت القديم المحاط بالأوحال كما هو دون أثر للسنين . تحولت الإشارة الخضراء إلى حمراء وهما فى منتصف الطريق فأوشكت على تركه وسط السيارات المنطلقة كالسهام والتى لم ترحم شيخوخة الرجل ! لكن ما ذنبه ؟! ماذا كان يمكن أن يظن بفتاة حافية بعد منتصف الليل فى ليلة كهذه ؟! يكفى أنه آواها حتى الصباح ، ولولاه لكان من الممكن أن تصاب بالتهاب رئوى ربما قضى عليها .! تشبثت بيده المرتعشة وظلت تشير بيدها الأخرى للسيارات المارقة حتى بلغت به الطوار الآخر . ارتكز على عصاه وقال بصوت واضح هذه المرة برغم ضجيج الطريق :

— لا زالت الدنيا مليئة بأولاد الحلال .. جعل الله لك فى كل خطوة سلامة !

لم ترد وإنما عادت أدراجها بمجرد توقف السيارات مرة أخرى مع إشارة المشاة الخضراء . ركبت عربتها لتعبر كوبرى الملك الصالح

ونفسها مشحونة هادرة بانفعالات صامتة صاخبة لهذا اللقاء الغريب !!
كان من الممكن أن تلتقى بهذا الرجل عدة مرات قبل ذلك بحكم سكنهما فى حى واحد ! لكن لم يحدث هذا إلا وهى فى طريقها لتصفية حسابها القديم النهائى مع بسيم ! كما حدث منذ عشرين عاما وهى مطرودة من بيته ليلة رأس السنة !! هل تحمل هذه الأشياء فى طياتها معنى أو أنها مجرد صدفة عمياء ؟!

اختلطت عليها الأمور وتشابكت الخواطر المتدافعة والذكريات المتراجعة وعلامات الاستفهام الشامخة والإجابات الغامضة المبتورة ، وتساقطت أوراق الخريف من الأشجار العريقة الضخمة الضاربة بجذورها الراسخة فى ضفة نيل مصر القديمة ومجرى العيون حيث انطلقت عربتها الحمراء بفكر مشتت ومشاعر سحيقة أوشكت أن تنحرف بها وتحتك بعربة مجاورة !

تداركت جمالات الموقف فى الحال فعادت قبضتها متحكمة فى عجلة القيادة . اكتشفت فى لحظة خاطفة أنها لم تعش حاضرا ولم تفكر فى مستقبل بقدر ما تركت أشباح الماضى تحاصرها وتضيق عليها الخناق حتى فقدت حياتها كل طعم لها ! صحيح أنها نجحت فى تكوين ثروة ، وهى الأمية الجاهلة ، لا يحلم بها حامل أعلى الدرجات العلمية ! وانطلقت النسوة الساذجات الجاهلات لتقبيل يدها أو الانحناء لها فى خشوع عند السلام عليها ، لكنها فى قرارة نفسها كانت واثقة من أن « رزق الهبل على المجانين » وأنها مهما ارتقت فى سلم المجتمع فهى بينها وبين نفسها دجالة من طراز رفيع كما فضحتها ثريا أمام الجميع ! يكفى ذهول من حولها فى البنك عندما كانت تذهب لإيداع بعض المبالغ أو صرفها . كانت عيونهم تتساءل : كيف لسيدة جميلة أنيقة مثلها أن تخرج من

حقيبتها خاتمها لختم الأوراق التى تتعامل فى مثل هذه المبالغ الضخمة ؟! مما اضطرها بعد ذلك إلى ارتداء ملاءة بنت البلد حتى يتطابق مظهرها مع جوهرها وتتراجع العيون بعيدا عنها !

كانت مستمتعة بجهلها وأميتها اللذين لم يقفا حائلا ضد طموحاتها ! لكنها منذ ذلك الحفل المشئوم أدركت أن ظلام الجهل مهما طال وساد وتكاثف لا يمكن أن يصمد لحظة أمام نور المعرفة حتى لو كان شمعة مرتعشة ! كم كانت ضعيفة أمام تلك الفتاة الرقيقة الجميلة التى لم تكن تملك سوى سلاح الحقيقة ؟! فى تلك اللحظة الرهيبة أدركت أن الإنسان لا يستطيع أن يخدع كل الناس كل الوقت إذا كان قد نجح من قبل فى خداع بعض الناس كل الوقت أو كل الناس بعض الوقت ! وهى التى سخرت من هذه الحقيقة عندما تجسدت أمامها فى إحدى المسرحيات التى عرضها التليفزيون فى سهرة ! في نهاية تلك السهرة نهضت للنوم سعيدة بقدرتها الفائقة على التلاعب بعقل ومشاعر جميع من تتعامل معهم !

لكنها أيقنت الآن أن خداع الآخرين ليس سوى الوجه الآخر لاحترام الذات الضائع ! كيف يمكن أن تحترم ذاتها وهى واثقة أن الدجل هو صناعتها ورأسمالها ؟! لكن ذاتها كانت قد ضاعت منذ تلك الليلة الرهيبة ، وظنت أن الانتقام ممن أضاعوها هو السبيل الوحيد لإعادتها ! وأخيرا اكتشفت أنهم أصبحوا محور حياتها فى الحاضر والمستقبل حتى لو نجحت فى الانتقام منهم وتحطيمهم الذى لن يعود عليها بفائدة إيجابية سوى إطفاء تلك النار التى ظلت تحرقها من الداخل طوال عشرين عاما ، ويبدو أنها كانت على وشك أن تحرقها كلية !

لكن هل يمكن أن يهرب بسيم بجلده هكذا كأنه لم يرتكب أية

جريمة ؟! صحيح أنها كانت على وشك أن تخرب بيته وتضيع كل ما حاول الحرص عليه لولا ثريا التى لابد أنها اتفقت معه بحكم أنها جارته العريقة وبحكم اتصال بنفسج بهما للانتقام بدورها ! سطعت الحقيقة أمامها على الطريق بكل ضوئها المبهر ! إن سلاح الحقيقة الذى استخدمته ثريا ضدها ، سوف تستخدمه هي بنفس الكفاءة ضده ! لماذا تتعرى هى ويظل هو متدثرا بسره القديم كأنه لم يفعل شيئا ؟! إذا كانت جريمتها النصب والدجل والاحتيال فإن جريمته الاغتصاب والجبن والتردد ! ومع ذلك فالقانون لا يعاقب من يمارسون الزار فى حين يحكم على مرتكبى الاغتصاب بالأشغال الشاقة أو حتى الإعدام ! ومع ذلك فإن شيئا داخلها يؤكد لها أنه لم يكن اغتصابا بقدر ما كان استسلاما منها بمحض إرادتها التى أوحت لها بأن جمالها قادر على الصعود بها على درجات السلم الاجتماعى ، خاصة وأنها لم تكن مجرد خادمة !!

انطلقت العربة الحمراء مع إشارة المرور الخضراء فى شارع القصر العينى وجمالات تحاول جمع شتات أفكارها بعد أن اقتربت من ميدان آخر معاركها مع الماضى ! تعالت دقات قلبها وهى تركن عربتها يمينا وتعبر الشارع بين العربات الخاصة والعامة المارقة بمهارة واعية حتى بلغت الطوار الآخر سعيدة بصفير الإعجاب المنطلق من بعض راكبى العربات والمتسكعين على الطوار . دخلت العمارة العريقة وسرعان ما كانت فى المصعد الذى تأملت نفسها فى مرآته مستمتعة بجمالها الوحشى المتدفق من بشرتها البيضاء ، وعينيها السوداوين الواسعتين العميقتين عمق آبار الأساطير ، وشعرها الأسود اللامع الفاحم المنهمر على ظهر فستانها الكهرمانى . وعندما توقف المصعد ابتسمت ابتسامة ساخرة وهى تتذكر وجه نوال الشاحب وشعرها الناحل وقوامها الخالى من براكين الأنوثة

المتأججة وكهوفها المظلمة الرطبة !

نبض صدرها مرة أخرى بدقات قلبها وهى تضغط على الجرس . فتح الباب لتجده واقفا بشحمه ولحمه ! عرفته لأول وهلة برغم أنها لم تكن تعرف أن الصلع زحف على رأسه ، وترهل جلده على عظامه برغم بقايا الكرش الهابط . بدا كهلا برغم أنه لم يتجاوز الأربعين إلا بقليل ، فهى أدرى الناس بسنه الحقيقية ! سعدت لانبهاره بها لدرجة أنه لم يعرفها وظل حائرا مترددا زائغ النظرات التى تمسحت بها من أم رأسها إلى أخمص قدميها حتى نطقت باسمها القديم دون تفكير :

— جمالات !

زادت حيرته وتردده وزوغان نظراته ، فلم تعرف إذا كان هذا بسبب المفاجأة أو بسبب الخوف ؟!

— أهلا وسهلا .. تفضلى !

تحرك أمامها وفتح لها باب الصالون مشيرا بيده إلى داخله :

— ستأتى المدام للقائك حالا !

واختفى !

كم صالت وجالت فى هذا البيت ! لكنها لا تعرف إذا كانت ستصول وتجول هذه المرة !! كم جلست فى هذا الصالون قبل بدء الحفل لتنحنى النسوة للسلام عليها أو لتقبيل يدها ؟! ولذلك يجب ألا تظن صاحبة البيت أنها جاءت للتراجع والدفاع عن نفسها ، بل قدمت للمزيد من الهجوم ووضع الأمور فى نصابها ! سواء أكانت ألطاف أو جمالات ؟! فهذا لن يغير من الأمر شيئا !

خرجت من خواطرها على الباب وهو يفتح فى هدوء وتدخل نوال

مرتدية فستانا وقورا من الحرير الكحلى ، ومبتسمة فى تحفظ وكبرياء لم تعهدهما فيها من قبل . نهضت جمالات للسلام عليها بنفس التحفظ وبكبرياء أشد . ران الصمت المتوتر الحرج مع جلوسهما متواجهتين ! قطعته نوال بنبرات واضحة رزينة :

— تحت أمرك فيما جئت من أجله !

إنها لم ترحب بها على الوجه اللائق ! فى الطريق إليها كانت جمالات على وشك أن تفقد الرغبة فى شن هجومها المزمع واعتبار زيارتها بهدف استمرار أواصر الصداقة خاصة وأنها لم تكن مدركة لمدى تأثر نوال بموقف ثريا ، لكن هذا التحفظ الذى يقترب من التعالى حفزها إلى الهجوم بل والانتقام ، حتى ولو عرف كافور سرها من هذا البيت ! إذ بدا هو أيضا فى تلك اللحظة حلقة من أغلال الماضى التى ترسف فيها دون أن تدرى ! فكل ما يملكه فى هذه الدنيا ثروة أمه بما فيها الفيللا الصفراء ، أما الشخصية القوية ، والمهارة الحرفية والتخطيط للمستقبل فأشياء لا علاقة له بها !

لاحظت نوال شرودها وترددها لأول مرة :

— قلت إنه موضوع شخصى لا يتعلق بالزار ؟!

استدركت جمالات وشرعت فى استعادة زمام الأمور :

— سبق لبنفسج أن وشت بى عندكم ؟!

قبل أن تستأنف برز التحدى فى كلمات نوال :

— لم تذكر سوى الحقيقة التى لم أصدقها فى ذلك الوقت بل ونهرتها واتهمتها بعدم الوفاء !!

وضعت جمالات ساقا على ساق فى لفتة متعالية :

— إنها لم تقل كل الحقيقة ! ولذلك جئت اليوم لإكمالها حتى يعرف

الجميع كل شيء عن الجميع !

لم تصدم نوال أو تهتز كما توقعت جمالات التى كبتت حنقها داخلها وهى تستمع إلى كلماتها الهادئة إلى حد البرود :

ـــ أنا على استعداد لسماع أى شيء !

ألقت جمالات بالسؤال فى وجهها :

ـــ أتعرفين أن أبى قريب لوالد زوجك ؟! فهو ابن عم له ؟!

أجابت نوال بنفس الهدوء البارد :

ـــ حكت لى بنفسج عن هذا الموضوع ! كما حكت لى أنك عشت فى بيته حوالى ثلاث سنوات !!

ـــ لكنها لم تحك لك عما كان بينى وبين زوجك !! فهذا سر لم يخرج إلى النور منذ عشرين عاما وظل محصورا بينى وبين زوجك وأمه وأبيه !

وضعت نوال ساقا على ساق هى الأخرى :

ـــ أتقصدين تورطكما فى علاقة حب دون خطبة أو زواج ؟!

كانت كل متعة جمالات وتشفيها أنها جاءت لتلقى بالحقيقة المروعة فى وجه هذه الشاحبة التافهة ، فإذ بالصدمة تأتى منها بهذا البرود المتعالى المقيت ، وينقلب الموقف رأسا على عقب . ومع ذلك فهى كفيلة باستعادة زمام الأمور اعتمادا على دهائها :

ـــ وهل حكت لك بنفسج عن هذا أيضا ؟!

كانت جمالات تتمنى أن تجيب بالإيجاب حتى تثبت لها كذبها لعدم معرفتها بالسر ، لكن نوال ألقت فى وجهها بالمفاجأة التالية :

ـــ أبداً .. لقد حكى لى بسيم كل شيء عن هذه العلاقة !

قررت جمالات مواصلة الزحف برغم ذهولها :

— وهل حكى لك عن اعتدائه علىّ و لم أكن قد بلغت سن الرشد بعد ؟!

أشاحت نوال بوجهها تجاه النافذة المفتوحة :

— لا تصورى الأمر على أنه اعتداء .. فقد كان بسيم فى سن المراهقة والطيش و لم يفعل سوى ما يفعله الكثيرون مع الخادمات !!

قاطعتها جمالات فى حدة بالغة :

— لا تنسى أننى كنت بمثابة ابنة عم له !!

استأنفت نوال كأنها لم تسمع شيئا :

— كما أن أى شاب لا يمكنه الحصول على ما يرغبه فى أية فتاة .. إلا إذا كانت هى على استعداد لمنحه إياه !

— ولنفرض أننى منحته هذا برغبتى !! هل يكون جزائى الضرب حتى الإجهاض الذى تسبب بعد ذلك فى عقمى كما سمعت بأذنيك من ثريا ؟!

— هل اعتدى هو بالضرب عليك ؟!

— ترك ركلات أبيه ولكماته تنهال علىّ نتيجة لفعلته التى أنكرها تماما فى جبن لا مثيل له !

— إذًا .. كان إجهاضك مسئولية أبيه فقط ؟!

تريد هذه الشاحبة النحيلة التافهة أن تمارس مهمة القاضى العادل ؟! من أين أتت بهذه السلطة والعجرفة وهى التى لا تساوى بصلة فى سوق النساء ؟!

— هل تقصدين بهذا أن القانون لن يمس زوجك من قريب أو بعيد ؟!

— مثلما تمارسين الزار تحت سمع القانون وبصره !!

— الآن تتكلمين عن الزار هكذا ؟!

— الحمد لله الذى أزال الغشاوة عن عينى !

أنزلت جمالات ساقها وأبعدت ظهرها عن مسند المقعد :

— هل يمكن أن تنتقمى منى بإفشاء هذا السر عند زوجى ؟!

— إذا كان الجهل هو الجريمة التى ارتكبتها فى الماضى .. فخراب البيوت لا يمكن أن يكون الجريمة التى سأرتكبها فى المستقبل !!

شعرت جمالات بصدقها الشديد فى كل كلمة نطقت بها ! وفى الوقت نفسه أدركت ما ترمى إليه « بخراب البيوت » :

— أحيانا تدفعنا قوة غامضة داخلنا إلى القيام بأعمال نعرف مقدما أنها ليست خيرة !!

— لعل ما يعزينى أننى لم أكن أملك هذه المعرفة ! كما أننى أكفر الآن عما ارتكبته فى حق بيتى وأسرتى بالوقوف إلى جوار زوجى لبناء ما خربته بجهل وحسن نية !! كذلك تعلمت من المحنة أنه إذا كان الله يغفر الخطايا جميعا فمن باب أولى أن يغفر البشر لمن أخطأوا فى حقهم حتى يمكن للحياة أن تستمر !

لم تملك جمالات سوى أن توافقها :

— فعلا .. فالانتقام نار لابد أن تحرق صاحبها فى النهاية !

— وتأكدى أنه إذا كان الطبيب قد قال لك أن إجهاضك القديم قد يكون سبب عقمك الحالى .. فإن إرادة الله فوق الجميع .. وإذا كتب لك الذرية فلابد أن تنجبى فى النهاية !

سقطت هذه الكلمات على قلبها المشتعل ، مثل قطرات مطر هبطت على أرض أوشك الجفاف أن يحيلها إلى صحراء محرقة ! هل يمكن أن تأتى

الحكمة أخيرا على لسان امرأة مثل نوال ! كم تغيرت وأصبحت مثيرة للاحترام ؟! أطرقت برأسها فى حزن :

ــ أحيانا يظل الإنسان طوال عمره يكفر عن خطأ ارتكبه فى لحظة طيش !!

ــ واشتركنا معك فى دفع الثمن .. بسيم من صحته التى تكالبت عليها الأمراض .. وأنا من ثروة أبى التى أفنى عمره فى جمعها .. وابنى حازم من حياته التى كان على وشك أن يفقدها ! ومع ذلك فالمستقبل هو قضيتنا وليس الماضى على حد قول ثريا التى تعلمت على يديها الكثير منذ ذلك الحفل !

ــ برغم صغر سنها ؟!

ــ العلم نور .. فالعمر عندها يقاس بالمعرفة وليس بالسنين !

كم تمنت جمالات أن تتعلم ؟! على الأقل القراءة والكتابة ! لكن دوامة الحياة ، وشهوة الانتقام ، وشبح الماضى ، والخوف من المستقبل ، كل هذا لم يترك لها لحظة تفكر فى حياتها التى جرفتها دوامة الأحداث وهى التى ظنت أنها صاغتها على هواها منذ البداية ! كم لسعها الندم عندما كان كافور يتعالى عليها وهو يقرأ لها الجريدة ، وخاصة صفحة الحوادث ؟! كم أصيب قلبها بغصة وهى تقلب صفحات المجلات بعينيها فلا تعى سوى الصور ؟! حتى إعلانات الشوارع لم تفهم منها سوى ما جاء على شاشة التليفزيون ! فإذا كانت بضاعتها الطقوس والطلاسم فإن القراءة والكتابة اللتين تجيدهما سوسن ابنة بنفسج ، هما بالنسبة لها طقوس وطلاسم !!

لاحظت نوال شرودها وهى تنظر عبر النافذة المفتوحة التى وقفت على حافتها عصفورة صغيرة فى منقارها عود من القش . نظرت إليها

بعينها التى تشبه خرزة سوداء صغيرة ثم انطلقت إلى عمود نور بعيد .

استأنفت نوال حديثها حتى لا يسود الصمت أطول من هذا :

— أرجو ألا أكون قد ضايقتك بكلامى هذا !

استدركت جمالات فى ارتياح لوداعة نوال العائدة والتى ذكرتها بأيام سطوتها التى يبدو أنها أصبحت غابرة :

— أبداً .. يجب ألا تغضب الحقيقة أحدا .. فقد آن الأوان لمواجهتها مهما كانت مرة !!

— وليمنحك الله القدرة على هذا .. ونحن فى خدمتك على أية حال !!

ابتسمت جمالات لأول مرة ولكن فى حزن :

— على كل حال .. نحن أهل والظفر لا يخرج من اللحم .. وربما استنرت برأيكم إذا تركت الزار وحاولت دخول ميدان التجارة !

نهضت جمالات ومعها نوال التى يبدو أنها ارتاحت لانتهاء الزيارة الحرجة . مدت جمالات يدها فشدت عليها :

— وفقك الله .. وبيتنا دائما مفتوح لك !!

كان لسانها على وشك أن يفلت بقولها إنه البيت الذى شهدت فيه أجمل الليالى ، لكنها شدت على يدها بحرارة :

— شكرا !! إلى اللقاء !!

وتحركت مندفعة نحو الباب ففتحته لتخرج منه وفى أعقابها نوال التى فوجئت بزوجها يتلكأ فى الصالة بعينين متألقتين على غير العادة ، وكأنه يحاول أن يسترق النظر إلى جمالات التى سلمت عليه فى حين كانت نوال تتابع بدقة لقاء اليدين والعينين :

— فرصة سعيدة للغاية يا بسيم بك .. نراك بخير !

ثم بدت وكأنها تجذب يدها من براثن يده . سبقها حيث فتح لها باب الشقة لتخرج وابتسامة عريضة عادت إلى شفتيها الغجريتين الغليظتين . ابتسامة كانت على وشك أن تدفع بنوال لتقذف بها على درجات السلم . تعمدت الوقوف أمام باب المصعد لتستعرض جسدها الذى اختفت براكينه وكهوفه ووديانه داخل فستانها الكهرمانى الضيق ! بمجرد وصول المصعد أسرع بفتح بابه لها . ولم تهدأ دقات قلب نوال إلا باختفائها داخله وهبوطه الذى تمنت أن يصل بها إلى سابع أرض !

خرجت جمالات إلى شمس الشارع الساطعة سعيدة باللحظات الأخيرة التى أكدت لها أن سحر الأنوثة أقوى ألف مرة من سحر الزار ! إنه سحر لا يخيب مفعوله ولا يضعف من أثره العلم . يكفى أنها تملك ما لا تملكه نوال التى ظنت فى يوم من الأيام أنها ملكت كل شىء ! خاصة عندما كسبت الجولة الأولى بزواجها من بسيم ، لكن جمالات كسبت كل جولات الزار لولا دخول ثريا إلى الحلقة وهزيمتها لها بالضربة القاضية ! أما الجولة الأخيرة التى لم تمض عليها سوى لحظات فقد كسبتها بطريقة لم تخطر لها على بال !!

عبرت جمالات الشارع إلى حيث كانت سيارتها واقفة . ركبتها وكلمات قديمة للأسطى ريحانة تلح على وجدانها . انطلقت بها يسارا لتخترق شوارع جاردن سيتى منحرفة يسارا مرة أخرى لتسير بحذاء النيل . كانت أحوال الأسطى ريحانة الاقتصادية قد تدهورت إلى حد ما فى أعقاب الوحدة بين مصر وسوريا ، وتطبيق القوانين الاشتراكية ، وانتشار المسارح ودور اللهو ، وإقبال الجميع على الالتحاق بالجامعات ! قل عدد المقبلين على حفلات الزار إلى الحد الذى فكرت فيه الأسطى ريحانة فى تغيير صنعتها وافتتاح محل للعطارة فى الغورية يتعلم فيه ابنها

كافور فنون التجارة ! لكنها سرعان ما عدلت عن فكرتها بوقوع نكسة يونيو الشهيرة وعودة جميع الزبائن إلى ممارسة الزار هربا من الكابوس ! ومع تطبيق سياسة الانفتاح فى أعقاب حرب أكتوبر ارتفعت طبقات جديدة ذات دخل اقتصادى عجيب غامض وإيمان عميق بالأسياد والعفاريت مما جعل الزار كالدجاجة التى تبيض ذهبا ! ومع ذلك كانت الأسطى ريحانة تؤكد لها دائما أن دوام الحال من المحال ! فمن يملك المال اليوم قد لا يملكه غدا ، ومن يؤمن بالزار اليوم قد يفقد إيمانه به غدا ، وإذا ظل ثابتا عليه فمن المستبعد أن يظل أبناؤه وبناته على نفس الثبات ! فالتعليم ينتشر لدرجة أن البعض أصبح يقارن الزار بالنصب والدجل والاحتيال بعد أن كانت الكودية شخصية محترمة لدرجة التقديس فى الأزمنة الغابرة ! ولابد أن يأتى اليوم الذى تندثر فيه مهنة الكودية مثل مهن أخرى سبقتها إلى الاندثار كالأدباتى والطرابيشى والسقا ! إن عجلة الزمن لا ترحم من لا يعمل لها حسابا !

توقفت العربة الفاخرة مع الإشارة الحمراء . إن ما فعلته ثريا كان جرس إنذار لما يمكن أن يحدث بعد ذلك على مستوى جماعى وليس على مستوى فردى ! فهل يمكن أن تسبق الزمن قبل أن تطويها عجلته ؟!

انطلقت العربة مع الإشارة الخضراء بسرعة أعلى ، وعلامات استفهام وحيرة تتراقص بامتداد الطريق الفسيح المنير بضوء الشمس المبهر : هل يمكن أن تغير مجرى حياتها بهذه السرعة والبساطة ؟! أو تمسك بالعصا من منتصفها بحيث تجمع بين الزار والتجارة ثم تتخلى عن الزار تدريجيا مع ازدهار تجارتها ؟! إنه لشىء جميل أو حلم قديم أن تملك عقارا ، وفى إمكانها الآن أن تملك محلا للعطارة يدر عليها ذهبا ! فهى تجارة رابحة جعلت من أصحابها مليونيرات ، كما أنها تعرف معظم أسرارها من خلال الزار وطلباته ، كذلك فهى حرفة

عاشت آلاف السنين وغير مرتهنة بزمن معين . وسيعمل كافور عندها أخيرا بعد أن ظلت طوال عمرها تعمل عند أمه ثم عنده بحكم ثروتها التى آلت كلها إليه ! وبدلا من أن يظل عاطلا بالوراثة ولا يفكر إلا فى المولود الذى لن يجيء ، فإنه سيظل رهين المحل طوال اليوم ، ولكن تحت إشرافها ورهن إشارتها !

هل كتب لها أخيرا أن ترسو على بر وتستقر على صخرة راسخة ؟! لا تعرف ! كل ما تعرفه أن البيت الذى خلفته الآن وراء ظهرها قد تركت معه الماضى كله ! لم يعد بذى معنى فى حياتها ، بل إن شيئا ما فى داخلها يؤكد لها حماقتها التى دفعتها إلى جعله محورا لوجودها وجعلتها سجينة رغبتها فى الانتقام ! فمهما حدث فى الماضى ، فإن ما تملكه حقا ويمكنها التصرف فيه هو حاضرها ومستقبلها ! أما تلك الليلة الكئيبة فقد عاشت فى وجدانها وفكرها لأنها حرصت على إحيائها باستمرار دون مبرر سوى الانتقام الغبى ! والآن تتوارى الليلة خلفها كلما انطلقت العربة !

مرقت العربة بجوار مجرى العيون وتحت ظلال الأشجار العتيقة العريقة الضاربة بجذورها الراسخة تحت طبقات الحجر والأسفلت . ستطلب من كافور أن يعلمها القراءة والكتابة قبل أن يعرف شيئا عن مشروع محل العطارة . عبرت كوبرى الملك الصالح وابتسامة على وجهها عندما وقعت عيناها على البيت القديم المطل على الكوبرى فتذكرت سلمه الحجرى الفسيح ورائحة الرطوبة العفنة التى تنبعث من بئره ! ومع ذلك اتسعت ابتسامتها !

كانت إشارة المرور خضراء فواصلت العربة انطلاقها مخترقة ميدان الروضة وقد بدا الطريق فسيحا مضيئا وعجلات العربة تمسح فى طياتها علامات الاستفهام والحيرة برغم تساؤل ملح ملك عليها شعورها : هل يمكن أن يولد الإنسان أكثر من مرة ؟!

رقم الإيداع : ٥٠٩٠ / ٨٦
الترقيم الدولى : ١ — ٠٢٥٩ — ١١ — ٩٧٧